مَعَ الحَيَاة

حسين فرج زين الدين

مع الحيّات

اقرأ ٣٦

تصدرها دار المعارف
بمعاونة الدكتور طه حسين بك واطون الجميل بك
وعباس محمود العقاد وفؤاد صروف

اقرأ ٣٦ — نوفمبر سنة ١٩٤٥



لدغـــــة

فى قرية من قرى الصعيد المتواضعة نشأ رفاعة ودرج على ما درج عليه أهل الريف فى جو تشيع فيه أراجيف المشعوذين بالجن والحيات. فكان يسمع طرائف وأحاديث لا تخلو من الخرافة والمبالغة عن الثعابين وحياتها والرفاعيين وعلاقتهم بها . وكانت هذه القصص والأراجيف تثير الخوف فى نفسه أما الثعابين لذاتها فلم تكن تستفزه لأن صغار الأطفال كصغار القردة لا تدرك من أمرها قليلا ولا كثيراً ولقد ترى الثعابين زاحفة فلا تخشى أن تقترب منها وتلمسها وتلعب بها . وعلقت هذه القصص بذاكرته فلما بعث به أبوه إلى المدرسة واتسعت مداركه رأى فى دراسة هذه الزواحف موضوعا طريفاً ونوعاً جديداً من البحث وأراد أن يرضى فى نفسه غريزة حب الاستطلاع ويعرف ما خفى عليه من أمر هذه المخلوقات الغريبة . فعكف على دراستها وعرف الكثير من خصائصها ومواطنها .

وكان فيما علم أن « العمارنة »[١] أغنى مناطق مصر بالحيات وأنواعها فدفعته الرغبة إلى جولة فى آثار تلك البقعة الخالدة التى كانت تسمى « أخت أتون » والتى كانت يوما ما مقر الملك الصالح « أخناتون » والتى أشرقت منها لأول مرة فى تاريخ الأديان شمس التوحيد وتلألأ نور ذلك الدين الجديد الذى لم يكن للعالم عهد به قبل أن يهتدى إليه أخناتون .

رحل رفاعة ومعه عمه حسان وابنة عمه الحسناء «وردة» التى كانت على شىء غير قليل من الثقافة وسعة الإدراك وهبطوا ذلك الوادى بعد رحلة شاقة وضربوا خيامهم فوق مرتفع من الأرض يطل على النيل ولكن الشوق المتأجج فى نفس الفتى إلى شهود الآثار أنساه وعثاء السفر وطفق يجوس خلال تلك الأطلال وحفز نشاط الشباب ابنة عمه إلى مرافقته ، أما عمه الشيخ فقد آثر الراحة فى الخيام .

---

(١) العمارنة مدينة تقع على الضفة الشرقية للنيل وكانت عاصمة المملكة المصرية بعد طيبه وتنسب اسمها الحالى إلى قبيلة بنى عمران أما ، اسمها القديم فهو (أخت أتون) أى سماء الإله أتون ومؤسس هذه المدينة الملك اخناتون أى المبتهج بآتون وآتون هذا كان يرمز إليه بعرص الشمس متدلية منه أشعه توزعها أيدى بشرية .

سار الفتيان بين خرائب مقفرة ومغاور مظلمة يرتادان السهل والوعر من هضبة إلى تل ومن واحة صغيرة إلى صحراء مترامية . لا يحسان نصباً ولا يذكران تعباً ورفاعة يشرح لرفيقته سر تلك الآثار ويحدثها عن عمارها من الزواحف وأنها أصبحت مسارح حيات بعد أن كانت مناسك عبادة وميادين نخار .

و بعدلأى وقفا على واحة صغيرة وسط هذه البقعة الصحراوية ورأيا فى عشبها الندى مهداً ليناً فألقيا بجسديهما عليه . وخلعت الفتاة عنها معطفها فبان عن قد أهيف لدن وساعد ناعم بض و امتزج هذا الجمال الفاتن بجمال الطبيعة الساحرة فأثار الشعور بالجمال فى نفس رفاعة عاطفة كادت تغلبه على أمره وهم بأن يطبع قبلة على ساعد وردة لولا أن رأى منها غضبة ونفرة فتراجع حيران أسفاً على ما بدر منه وصمت فترة استرجع فيها نفسه ثم اعتذر لوردة عن هفوته وراح يزيل عنها روعها بحديث عذب مسترسل عن موضوع الرحلة وتاريخ الأرض التى نزلوا بها فقال: إنها كانت فى عهدها الغابر فسيحة الأرجاء عامرة بالهياكل الدينية والقصور والبساتين وقد وصفها أحد أمراء ذلك العهد بقوله .

(أخت أتون) بلدة جميلة هى سيدة المدن فى بهاء الحفلات

وافرة الثراء تهدى إلى المعبود أتون فى وسطها الهدايا إذا جال البصر فى أنحائها عجل الفرح إلى القلب، ولم لا يكون ذلك وهى مدينة رائعة زاهرة يخيل لرائيها أنها جنة غناء عامرة بالناس، إذا أشرق عليها (أتون) نشر أشعته فتحتضن ابنه المحبوب الأزلى سايل (أتون) الذى وقف الأقاليم على من أجلسه على العرش وأرجع الأرض إلى ر-ه .

سكت رفاعه يستجمع أفكاره ثم استطرد يقول : من يدرى لعل هذه الربوع تشهد مهرجانا كالذى شهدته يوم أن هبت تستقبل موكب أخناتون وهو راكب عجلة ومعه كريماته الأربع وكبار رجال دولته فقابلهم القوم عند معبد آتون بهتاف عظيم مرحبين مهللين ثم امتلأ المذبح العالى بالقرابين الغالية .

وقد اشترك جلالة الملك فى الاحتفال وأنشدت زوجته أنشودة السلام إلى المعبود آتون بصوت رخيم وهى قابضة بيديها الجميلتين على آلتين موسيقيتين وقد انبعثت من الهيا كل نغمات حلوة شجية تردد أنشودة الاله (آتون)

(ما أكثر مخلوقاتك المتنوعة -- إنها سر مكنون — أيها الاله الأحد الذى لا شريك له فى الملك .

إشراقك وضاح فى أفق السماء — يا أتون يا حى يا مبدىء الحياة ، إذا تعاليت فى الأفق الشرقى من السماء أفضت على الأرض جمالك؛ ذلك بأنك جميل عظيم منير فى السموات العلا يسطع نورك على الأرض وعلى جميع مخلوقاتك .

أنت (أتون) ، أنت الذى ملكتهم وجمعتهم على محبتك ، أنت بعيد عن الأرض لكنك قريب منها بأشعتك . أنت متعال لكن آثارك تتجلى فى وضح النهار)

سكنت الفتاة إلى هذا الحديث الشائق الخشع وهدأ روعها وهمت أن تبتدر فتاها بسؤال ولكن رفاعة تابع حديثه قائلا: من يدرى ماذا كانت تخلف تلك المدينة الزاهرة لو لم تعصف بها النوب إبان عظمتها فلم تمهلها أكثر من خمسين عاما ثم أزالتها صروف الليالى والجدود العواثر فأتت على أهلها وأحالت ديرهم بلاقع خاوية ينعب فيها البوم وتسعى بين جنباتها الحيات فأصبحت تضيق بها على سعتها فمنها ما اندس فى الرمل أو اختفى فى المغاور ومنها ما تسلق الأشجار أو قفز فى الهواء إلى غير ذلك من شتى الأنواع .

وما إن توقف رفاعة عن الحديث حتى عادت الفتاة تسأله

لقد أفضت فى الحديث عن تاريخ تلك البقعة وما فيها من عظمة وجلال ، وها أنت ترى ما آلت إليه فهل لك أن تحدثنى عن ساكنيها الآن من الثعابين والحيات ولا أخالك إلا شغوفاً بها ؟ فراح من فوره يشرح لها أنواع الزواحف فى هذه البقعة وطرق معيشتها ، ولكنها لم تمهله ليتم حديثه بل قاطعته فى رفق ودلال قائلة . أعفنى من هذا الشرح الآن وحدثنى هل تتحاب الثعابين كما يتحاب غيرها من المخلوقات .

وهل لهذه العاطفة من أثر فيما تعلم عندها . فأجاب : أما عن ذلك فلم يهدنى إليه علمى ولم أشهده فى تجاريبى ولكنى محدثك عن حادث وقع سمه حباً وغراماً أوسمه ما تشائين من الأسماء وقع هذا الحادث لأحد القرويين فى ضاحية من ضواحى مدينة « الكاب » فقد قتل ثعباناً ساماً وحمله إلى قريته واصطحب معه صديقاً إلى البيت وقال له « إنَّا سنمزح مع زوجتى مزاحاً قد لا يرضيها ولكنا سنضحك منه كثيراً فسأضع هذه الحية الميتة فى قبعتى وأدعها فى حجرة نومى وأطلب إليها إحضار القبعة بينما نشرب نحن شيئاً من النبيذ .

ودخل الرجلان البيت ودبر الزوج لزوجه ما أراد وجلس مع

صاحبه إلى مائدة الشراب يحتسيان الخمر ثم نادى زوجته : إلى بقبعتى من المخدع . . فذهبت حيث أمرها ولكنها لم تعد وطالت غيبتها وطال انتظار الصاحبين حدوث المفاجأة وسماع صرخة الفزع فما ظفرا بشىء . ولما استبطأ المرأة ساورت الزوج الوساوس فهم من فوره إلى المخدع ولم يكد يلج بابه حتى كاد يصعق لرؤية زوجته جثة هامدة ووجد بجانبها و بجانب الحية الميتة ثعباناً لم يشك فى أنه هو الذى لدغها . وذهبت المرأة المسكينة ضحية ذلك المزاح الثقيل . أما الثعبان فظاهر أنه اقتفى أثر القروى الذى قتل أنثاه ونفذ إلى المخدع من كوة صغيرة لينتقم لأنثاه أو تولى خبيبته .

دمعت عين الفتاة لهول ما سمعت ووجمت قليلا ثم عادت إلى نفسها وسألت رفاعة قائلة هل لك أن تشرح لى أعراض التسمم بالحيات وهل سمها قاتل إلى هذا الحد كما حدث للقروية التعسة فأجابها الفتى: إن من الناس من يقضى عليه السم فى ساعات قليلة ومنهم من يمتد به الأجل بضعة أسابيع ومن الناس من يقع فى غيبوبة لا يفيق منها أبداً ومنهم من يموت وهو يعانى آلاماً مبرحة وقد ينجو الكثير منهم تبعاً لقوة مقاومة الكامنة فى أجسامهم. وهأنذا أتلو عليك مذكرات طبيب اسمه (هينزل) وهو أحد

العلماء المجاهدين الذين يضحون بأنفسهم فى سبيل العلم ؛ فقد أحضر هذا الرجل أفعى شرسة كبيرة الحجم مضى عليها ثلاثة أيام لم تنفث سما فأدنها من إبهام يده اليمنى وتركها تعضه وفى هذه المذكرات الممتعة يقول الطبيب :

عضتنى الأفعى فى الساعة الأولى بعد الظهر فأحدثت جروحاً عميقة مؤلمة . واهتزت جميع أعضاء جسمى رغم تظاهرى بالثبات ثم أخذ الألم يسرى فى إبهامى وانتقل إلى الكف ثم إلى الذراع وامتد حتى الأبط فأسرعت بربط الإبهام وجعلت أمتص السم من موضع اللدغة ولكننى لم أستعمل المشرط ولم أعقم الجرح لأننى لا أومن كثيراً بهذه الإحتيطات وشعرت عند الإصابة بتخدير فى أعضائى وأصابنى دوار فى رأسى وإغماء قصير أفقت منه بعد قليل.

وفى الساعة الثانية بعد ظهر اليوم الأول عاودنى الإغماء وفى خلال هذه الفترة ظهر مكان اللدغة لون أزرق وتورم الإبهام وآلمنى وأخذت نوبات الإغماء تتكرر ولكن لا تمكث إلا بضع دقائق نظراً لمقاومتى إياها بقوة الإرادة .

وبين الساعة الثانية والثالثة عم الورم الذراع كله وصعب علىّ تحريكه وأصبحت أسمع الأصوات ضعيفة وتعذر على فهمها وحاولت

فى جهد أن أسمعها ولكن شغلتنى الآلام التى بدأت تظهر فى بطنى وقد أنتفخ .

و بعد الساعة الثالثة تقايأت لأول مرة وأصابنى إسهال وتشنجات متقطعة فى أجزاء صغيرة من أعضاء البطن وأعضاء أخرى من الجسم ، واستمرت التشنجات فى المثانة وفقدت قواى لدرجة ثقل معها سمعى وشعرت بعطش شديد وسرت فى أعضاء جسمى موجة من البرودة الشديدة واحتقن الذراع واشتد ضغط البطن على أعضاء التنفس . وقد أخبرنى من كان معى أن منظرى قد تغير وتنكر وأصبح من الصعب التعرف على شخصى وقيل لى إننى كثيراً ما كنت أهذى ولكنى كنت مالكا لحواسى بين فترات الإغماء وكثيراً ما حاولت أن أقول شيئاً فتخوننى قواى .

وفى الساعة السابعة (أى بعد مضى ست ساعات من الحادث) زالت أعراض التشنج والقئ والإسهال وكذلك آلام البطن وتناولت جرعة من مستحلب (الأفيون) فقضيت ليلة هادئة غير أن آلام البطن عاودتنى فضايقنى ذلك قليلا .

وفى الساعة السابعة من صباح اليوم الثانى تضاعفت أورام الذراع حتى الأبط واستحال لون العضة أزرق قاتماً وظهرت حولها

حلقة حمراء على امتداد الجانب الخلفى الذراع وامتد الاحتقان إلى الصدر وانتقل تدريجاً إلى الفخذ وارتفعت درجة الحرارة شيئاً قليلا فى الأعضاء المتورمة وتصبب العرق فانخفضت درجة الحرارة وكدت أتمتع براحة تامة لولا ما عانيت من متاعب البول وضعف النبض ولكنى لم أفقد شهيتى للطعام . وعنـد الظهر زال الدوار بعد أن تناولت شراباً ساخناً وزالت كذلك نوبات الإغماء ولكن آلام الذراع عادت واشتدت وزاد شعورى بالبرد وضعف النبض كثيراً غير أن شهيتى للطعام ظلت جيدة وقل شعورى بالعطش وخفت وطأة آلام البول .

وفى اليوم الثالث ضعفت حدة آلام الكتف والفخذ وجدار البطن واختفت تماماً متاعب البول ولكن الإعياء وجميع الأعراض الأخرى ظلت على شدتها .

وفى اليوم العاشر تلاشت جميع أورام الصدر وزالت جميع الأورام الأخرى فى اليوم الثامن عشر . ويختتم الطبيب تقريره القيم بعد ستة أسابيع من تاريخ اللدغة بقوله: لقد خرجت من هذه التجربة القاسية بهزال شديد ولون شاحب لم أعف منها حتى

اليوم ، ولازمتنى كذلك رعدة تتمشى فى مفاصلى وظل ذراعى ضعيفاً لم يتم برؤه وأسمر مكان اللدغة .

وما أن أتى رفاعة على آخر هذه المذكرات حتى صاحت وردة صيحة مختنقة وأشارت إلى ساعدها الأيمن أشارة هلع و اضطراب آه لقد عضنى ثعبان . . فقام رفاعه يفتش عن الثعبان الآثم و يهرول من هنا إلى ههنا وعيناه عالقتان بالأرض يتحسس آثار الأفعوان ثم صاح : لقد وجدتها . هذه آثاره وأ كبر الظن أنه ثعبان سام فدعينى أوسع قليلا من مكان اللدغة ثم امتص السم من ساعدك ولا خوف علىّ من سريان السم فى دمى ففمى سليم من الجروح . . أسرعى . فليس فى الوقت فسحة تزيد على نصف الساعة أخشى بعدها من طغيان السم على جسمك . . هيا . . فبعدقليل سيشتد ألمك و يضيق نفسك . . عجلى بربك . .

ثم ضم يده إلى جيبه فأخرج ساعته وأخذ يعد الدقائق والثوانى منذراً تارة ومتوسلا أخرى فلم تأبه لنذره ولم تستجب لتوسلاته قالت : إنى أوثر الموت وأرحب به على أن أدعك تمتص السم فتكون أنت الضحية . . ثم جعلت تئن وتتأوه . .

واسترسل قائلا : يا فتاتى الحبيبة . . . لم يعد لنا غير ربع

ساعة فارحمى نفسك وارحمى أباك وارحمينى . . ودعينى أبدأ باستعمال المشرط . .

فأشارت إليه متمنعة ونحته عنها . . وأسلمت أمرها لله تنتظر قضاءه فيها . ولما لم تبق غير دقيقة واحدة صاح بها :

يا عزيزتى أنه لعار على أن تموتى أمامى وأنا مكتوف اليدين . إن كلمة واحدة من فيك كفيلة بانقاذ حياتك الغالية . ثم ركع بجانبها ضارعا متوسلا يستحلفها ويناديها بأحب الأسماء إليها فأشارت إليه بأصبعها أجابة لطلبه فاندفع إلى ساعدها وقبض عليه بكلتا يديه وأنهال بفيه على موضع اللدغة ينهل السم منه وبعد فترة قصيرة أفاقت وردة واستردت نشاطها وقالت له قولة الماكرة :

« ما كان ثمت ثعبان يا عزيزى ولعلى مثلت دورى على النحو الذى ترضاه » فأجابها :

«ما كنت أجهل ذلك ولقد فطنت له منذ الصرخة الأولى»

ثم طافت على شفتية بسمة حبيبة وقال : « ألا تكون هذه القبلات القاتلة عربوناً لارتباط مقدس . »

وكان فيما جرى بين وردة وصاحبها شيء من الإغراء البرىء

والإغواء السائغ، وما وردة إلا إحدى بنات حواء. وغشيهما الصمت هنيهة . . غير أن الفتاة كانت مشوقة إلى استيعاب حديث الثعابين وكان الفتى محدقا فى وجهها الوضاء كأنما يستوحى قسماته ما تحدث به نفسها، وقبل أن تبتدره بسؤال قطع حبل هذا الصمت فقال : « قد تكونين سمعت من جدتنا أو من إحدى عجائز قريتنا فى يوم من أيام الطفولة بأمر الثعابين المعمرة أو كما يسميها العامة الثعابين « المؤلفة » لأن عمر الواحد منها على ما يزعمون ينيف على ألف سنة مما يعدون ، ويسمونه كذلك « الآف » فإذا بلغ هذه السن ونبت الشعر على جلده فقد بصره فيعوضه الله عنه جوهرة وهاجة يكنها فى جوفه فإذا خرج ليلا ألقاها تتدحرج أمامه. ومن مزاعمهم أنها إذا ألقيت أضاءت ما حولها فيجد على سناها هدى حيث يسير وإلى حيث يجد فريسته . وهو على هذه الجوهرة جد حريص، فإذا بدأ نور الصباح غيبها فى جوفه مرة أخرى وعاد إلى مكمنه فلا يخرج إلا إذا جن الليل . ولعلك سمعت فوق ذلك من أمر هذه الجوهرة عجباً وأن أناساً كانوا يقتفون آثار مثل هذا « الآف » فإذا تبينوها كمنوا له عندها فإذا خرج وألقى بجوهرته تحينوا فرصة غفلة منه عنها فانقضوا عليها فى خفة وسرعة وطووها فى لفافة كثيفة

حالكة اللون وفروا بها وهم أحرص ما يكونون على ألا يبين شعاع من نورها النفاذ فيتعقبهم صاحبها و يقضى عليهم . و إذا ما نجوا بها وآووا إلى مساكنهم وضعوها فى كن لا يتسرب منه الضوء ووضعوا معها بعض الذهب فاذا أصبح الصبح وجدوا هذا الذهب مضاعفاً .

ولعلك ترين أن هذه المزاعم تحمل فى طياتها دليل خرافتها . ولتعلمى أن العلماء المشتغلين بدراسة الزواحف وحياتها وطبائعها لم يجدوا فى الثعابين ما يجدون فى غيرها من العلامات المميزة الأعمار ، فلم يقطعوا برأى ثابت فى آجالها ولم يعثر المشرحون منهم يوماً على أثر الجواهر فى جوافها . ولعل خرافة الجوهرة نبتت من أن جمهرة الثعابين زواحف ليلية وبخاصة السامة منها، وهى كغيرها من حيوانات الليل ينبعث من مقلها فى الظلام الحالك ضوء لامع، ولقصر جفون الثعبان عن عينيه وعدم إغماضها يستمر ظهور هذا الضوء منها .

ثم حانت منه التفاتة عارضة فرأى على كثب بين الأعشاب سحلية وضفدعا يتحفزان لصيد الهوام، فكلما حامت فراشة أو ذبابة كان لسان أى منهما أسرع من البرق إلى اصطيادها ، فسكت

وظل يتابع حركاتهما فى شغف واهتمام وسار فى حركة غير إرادية فلما أحسا وقع قدميه اختفيا . وحول هـذه الزواحف قامت خرافات لاتقل غرابة عن خرافة الثعابين. فقد زعموا أن الضفادع تسقى سكان القبور ممن قدموا فى دنياهم صالحاً وتأتى يوم الحشر وفى فمها الماء فتسقى الناس فى موقف يجف فيه الريق ويزيغ فيه البصر . وأن السحلية تحمل مفاتيح جنة الخلد ولذا استنكروا قتل هذه أو تلك أو الأعتداء عليهما .

ولما هم بالرجوع إلى مجلس وردة رأى فى كومة من الرمال آثار ثعبان فجعل يبحث فى التراب حتى أخرج حية رقطاء[1] قد حبتها الطبيعة ثوباً خلاباً يبهر العيون رونقه ولا يكاد يفرق بين رأسها وذنبها والتفت حول معصمه وحملها إلى وردة فانزعجت وصاحت به أن ألقها يامجنون وإلا عضتك، فكان فى ذلك قضاء عليك . فتبسم ضاحكا من قولها وقال : لابأس على ولا عليك من هذه الحية فهى عزلاء من كل سلاح قاتل فأسنانها كأسنان «البلطية» لاتضر ولا تؤذى . ولو علم القدماء حقيقة أمر هذه الحية وغيرها من الحيوانات المظلومة «كالبرص» الذى اتهموه

(١) Eryx thebaicus

بيث ميكروب الجذام فى ملح الطعام لأفادوا من الإبقاء عليها الشىء الكثير من إبادة الحشرات المنزلية الضارة كالديدان والصراصير والذباب والبعوض إلى غير ذلك . ولا بتدعوا لها خرافة تحميها كالسحالى والضفادع .

فلما أحس بعض الطمأنينة فى نفس وردة دنا منها وهو يداعب الثعبان «الدساس» ويمسح على جسمه وهو هادىء فتراجعت فى خوف قائلة : أنها تخشى أن تنالها الحية بلدغة من لسانها المسموم. فقهقه عالياً وكاد يستلقى من الضحك وقال ساخراً : « حقاً إن الجهل نور » يا عزيزتى من أنبأك هذا . وكيف يقرص اللسان أو يعض . لا يقرص ولا يقتل إلا لسان الإنسان . أما الثعبان فإن أكثر من استعمال لسانه فلأنه أقوى حواسه وهو له كعصى الأعمى يتحسس به كل ما يعترض طريقه ويختبر به الماء قبل أن ينزل إليه أو يشرب منه . والثعبان السجين يظل زمناً فى بدء إساره يتحسس بلسانه نواحى المحبس ودقائقه لعله يعثر على مخرج .

وكذلك قامت حول الذنب أراجيف شتى فذهب كثير من السذج إلى أن الثعابين تعض بأذنابها وأن هذه العضات كثيراً

ما تودى بحياة الإنسان . و بلغ هذا الخوف مبلغاً عند هؤلاء الناس لدرجة أنهم يخافون من الذنب المبتور طالما هو يتحرك . ولعل هذه الأراجيف نشأت من أن بعض الحيات قد سلحت بشوكة فى طرف الذنب . بل قد أذهب بك إلى أبعد من ذلك فى الدفاع عن هذه الأفاعى وعدم الخوف حتى من السامة منها ، فهى بطبعها شديدة الميل إلى السكينة . لاتستثير عدواً ولا تبدأه بالمهاجمة . وكثيراً ما تحاول الفرار إذا هوجمت ولكنها إذا أحرجت اضطرت إلى انتضاء أسلحتها للدفاع عن نفسها فهى لا تستعمل السلاح إلا عند الضرورة الملجئة ولا تستعمله جزافاً كما يستعمله الكثير من أبناء آدم .

على أن هناك ضروباً من الحيات شذت عن هذه القاعدة وجبلت على الفتك والغدر . فحية الأهرام المعروفة بالغريبة[1] تهاجم الإنسان ولا تخشاه . وتتميز بوجود صليب على رأسها ، ولون ظهر هذه الأفعى ضارب الى الحمرة أو الغبرة وعليه خطوط بيض مشربة بصفرة . وهذه الأفعى سريعة الحركة كثيرة العض وتعتبر بحق أعدى أعداء الإنسان لأن سمها قتال وضحاياها كثيرة

(١) Echis carinatus

وخاصة فى الهند . وقد يتناثر السم من أنيابها رشاشاً إذا ظلت مدة طويلة دون أن تعض فريسة ما ، ولا تتوانى فى عض كل مايقدم لها من الأشياء ، وإذا هاجت هاجمت كل ما يصادفها على غير هدى وتكثر هذه الأفاعى الشرسة فى صحراء مصر . وتشبه الغريبة فى شراستها وعدوانها حية أوربية تشترك معها فى اسم «الصليبية»(١) وتنفرد باسم حية «جهنم» تثور أحياناً فلا تصادف شيئا إلا ضربته بنيوبها ثم تهدأ ثائرتها بغتة فلا تحرك ساكنا ولا تؤذى صاحبها ولو داعبها . وهناك غير حيات الأرض حية أمريكية تعيش بين الماء والشجر ضخمة الجسم مفرطة الطول حتى لقد يبلغ طولها عشرة أمتار أو يزيد وتعرف بـ « الأناكندا »(٢) بالغة الخطر على الصيادين . ويروى راو أن أحد الهنود الحمر كان مع امرأته فى زورق يتصيدان البط فرمى واحدة فجرحها ثم ترك بندقيته فى الزورق وراح يتعقب البطة وما أن أدركها ومد يده إليها حتى أحست به إحدى هذه الحيات وفى مثل لمحة الطرف كانت قد طوقت جسمه وبدأت تهصر عوده فصرخ صرخة عالية مستنجداً

---

(١) Vipera berus

(٢) Anakonda

زوجته فأسرعت بمدية حادة الى الحية فمزقتها وخلصت زوجها من موت محقق .

وكان اصياد آخر ولد فى العاشرة من عمره خرج معه مرة فى الصيد فخلفه أبوه على حراسة صيده الذى جمعه على ضفة النهر وما كاد يبتعد عنه بعض خطوات حتى خرجت إليه أنا كندا فقيدت ساقيه وهمت بجذبه إلى الماء فصاح الطفل صيحة مزعجة فرجع إليه أبوه وهو بين طيات الحية وكان يجيد الرماية فصوب إليها رصاصة أطاحت رأسها دون أن يمس ابنه بسوء ونجا من ميتتين بأعجوبة .

وكثيراً ما تشجر بين التمساح الأمريكى (الليجاتور) على شراسته وبين هذه الحية معارك مروعة على ما فى شهودها من روعة ومتعة ، فيرى الرائى الأنا كندا وقد التفت حول التمساح وهى تحاول قصف أضلاعه وهو يحاول ابتلاعها بين فكيه تارة والغوص بها تحت الماء تارة أخرى فلا ينال منها منالا ولطالما انتهت هذه المعارك بانتصار الحية على التمساح والقضاء عليه . ومما يتحدث به أهل البرازيل أن أحد الهنود الحمر واسمه(مول)خرج للصيد فى الغابة ومعه كلبه وفجأة شرع الكلب ينبح نباحا غير مألوف علم منه

سيده أنه لا بد أن يكون قد بصر بأفعى غريبة، وراح يفتش عنها وعلى غرة منه وقبل أن يهتدى إلى مكمنها هاجمته الحية ولدغته لدغة قاسية فلما أحسها أطلق عليها رصاصة دقت رأسها وفى مثل وميض البرق كان قد شق بطنها وأخرج مرارتها وأخذ يقطر صفراءها على جرحه بعد ان أوسعه . فمن عقائد الهنود أن إفراز صفراء الأفعى ترياق اسمها . وأحس (مول) ان الأرض تدور به وأصابه الوهن فسقط ورأى الكلب حال صاحبه فأسرع إلى القرية وهو ينبح نباحا محزناً فتوجس أهلها شراً واتبعوه إلى الغاب فدلهم على مكان (مول) فرأوه طريحاً وبجانبه سيد (١) الاحراج قتيلا وهو ثعبان براز يلى ساه فتكشفت لهم جريمة الأفعى وحملوا صيادهم وعادوا به الى القرية فعالجوه بما لديهم من عقاقير نباتية يرونها ناجعة فيما مر بهم من تجارب ولقد خفت وطأة الداء عن الصياد المسكين ولكنه لم يشف الشفاء الحاسم فقد كان فى مثل اليوم الذى أصيب فيه من كل عام يعاوده الألم ويعاود ساقه الورم.

ولعلمى إن لم تكونى تعلمين ان الثعابين لشدة رغبتها فى السكون وميلها إلى السلام تقر فى أوكارها ما يقرب من نصف

(١) Lachesis

أوقات حياتها وتستغنى فيها حتى عن السعى فى الرزق قانعة بالتغذى بما تكون قد أدخرته فى أجسامها فى فصول النشاط من المواد الدهنية ، وهى لا تتطاحن على الرزق ولا تتنافس فيه ولا يعدو بعضها على بعض فى سبيله . ولو نسج الناس على منوالها فى ذلك ما تحاسدوا ولا تباغضوا ولا قتل بعضهم بعضا .

ولعل آباءنا الأقدمين كانوا أعلم منا بمزايا هذه المخلوقات وأوسع منا حيلة فى استغلالها والانتفاع بها فى أغراض حيوية شتى فاتخذوا من شحمها بلسما لأدواء المواسير والروماتزم والاورام الخبيثة. وقد ظهرت فائدة ذلك لبعض العلماء العصريين فاستعملوا سم «الناشر» (١) فى مداواة السرطان والجذام . وفى بعض البلاد تستخدم الناس الحيات للقضاء على الفيران وصغارها لأنها تستطيع الانسلال إلى جحورها الضيقة لطول أجسامها ودقتها ولينها فتخلصهم من صغارها قبل أن تكبر ويصعب اتقاء أضرارها . وفى البرازيل وفى الهند وفى جنوب افريقيا معاهد خاصة تعنى عناية كبيرة بتربية الأفاعى وإجراء التجارب العلمية فيها، واتخذ قدماء المصريين النواشر آلات مريحة لتنفيذ أحكام الأعدام عندهم

(١) Naja haje

بدلا من المقصلة والمشنقة. ولعل ذلك ما حدا «بكليوباطره» ملكة مصر إلى الاستعانة بالحية فى خلاص مريح من حياة ملأى بالمتاعب وتوقى ذل الأسر وعاره بعد أن توالت على جندها وجند صاحبها «انطونيو» الهزائم . وقد صوّر أمير الشعراء شوقى هذا الحادث أبرع تصوير فيما كتبه فى مصرع « كليو باطرة » على لسانها تخاطب الأفعى :

هلمى الآن منقذتى هلمى
وأهلا بالخلاص وقد سعى لى
شربت السم من فيك الذى
بسلطانى وزدت عليه مالى
و بعض السم ترياق لبعض
وقد يشفى العضال من العضال
هلمى عانقى أفعى قصور
بها شوق إلى أفعى التلال
حياة الذل تدفع بالمنايا
تعالى حية الوادى تعالى

وكان من عظم اهتمام القدماء بالثعابين أن صوّروها فى معابدهم

ولم يجدوا حرجاً فى أن يؤلهوها وجعلوا منها رموزاً للقوة والسلطان فوضعوا صور الناشر فى تيجان الملوك ، وكان «بوطو»[1] أى الحية المقدسة رمز الحكمة عندهم ، وكانوا يهتمون بحفظها بعد موتها بالتحنيط وأقاموا منها ومن القطط وعصافير الجنة حراساً على مدينة الموتى فى طيبة . وما كانوا يفزعون من رؤيتها فى بيوتهم بل كانوا إذا دخلوا البيوت يصفقون اعتقاداً منهم أنها إذا سمعت التصفيق أخلت لهم الطريق . ولا علىّ أن أقص عليك خرافة كانت تسود الشعب المصرى فى قديم الزمان وهى أن الأفاعى السامة كانت تخالط الناس فى بيوتهم وتعيش بينهم وتأكل من عسلهم وتشرب من نبيذهم وتحرسهم ولا تمسهم بسوء ولم يعكر صفو هذا الوئام بينها و بينهم إلا ماحدث فى يوم من الأيام لولد أحد التجار إذ لدغه ثعبان صغير فقتله وجاءت أم الثعبان فلما علمت بالحادث قتلت ابنها ارضاء لأهل الطفل ورأت أنه قد يتعذر السلام بين الفريقين بعد ذلك فدعت أبناء جنسها إلى الهجرة. ومنذ ذلك اليوم تولدت العداوة بين الثعبان والإنسان . ويروى أن هذه العداوة كانت مكتوبة على الناس والحيات منذ أن أخفت

---

(١) Buto

حية آدم إبليس فى جوفها ومكنت له الوصول إلى حواء وآدم فاغراهما بمخالفة أمر ربهما وحرضهما على الأكل من شجرة المعرفة بل الشجرة الملعونة فى القرآن فأكلا منها فبدت لهما سوآتهما وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة ثم اخرجهما ربهما منها وخرجت معهما الحية وكان الأمر الذى تلقته من الرب (على بطنك تزحفين ومن تراب الأرض تأكلين كل أيام حياتك وأضع عداوة بينك و بين المرأة وبين نسلك ونسلها ، هو يسحق رأسك وأنت تسحقين عقبه) وشغل الحديث رفاعة ووردة عن نفسيهما وعن العودة إلى مضارب الخيام . حتى مالت الشمس إلى المغيب . . وراح النسيم يتخالل أوراق الأشجار المتمايلة فيسمع لها حفيف كحفيف الأفاعى التى يتحدث عنها رفاعة ، وجعلت ألوية الظلام تنتشر رويداً رويداً حتى غشت أديم الأرض وهدأت الأنفاس وكأنما سكنت كهنة (اتون) إلى المعابد يرتلون أنشودة الليل :

أيها المعبود ! أتون لقد آويت إلى أفق السماء الغربي فشمل الأرض ظلام كظلام القبور . .

ها هم الناس قد خفوا إلى مضاجعهم هادئى النفوس يداعب الكرى جفونهم فباتوا فى سبات عميق لا يحسون شيئاً .

وها هى الأسود الضارية قد نشطت من آجامها تطارد الغزلان الوادعة

وها هى الأفاعى اللادغة قد خرجت من أوكارها تفتك بكل حى من مخلوقاتك

وها هى الأرض قد سكنت وغابت عنها أشعتك الدافئة .

كل ذلك لأن مدبر هذه الكائنات وراعيها قد سكن إلى أفقه يستريح . أصاب قلب الصاحبين رهبة ووحشة . وأشفق الفتى على وردة فأخذ بيدها وهو يقول: لقد آن لنا أن نعود الآن فإننى أخشى على أبيك أن يأخذه القلق لغيبتنا ولأدع الآن هذا « الدساس » البرىء يعود بدوره إلى داره . وألقاه فى رفق على الأرض فانطلق يزحف وهما يرقبانه وقد تملك وردة الدهش لما خيل إليها من سرعة زحفه وسارا خلفه وهى لا تصدق أن فى طوقهما أدراكه . فلما لحقا به تملكها العجب لما توهمت من سرعة. فزحف الأفاعى خداع للبصر يظهر تماوجه البطىء سرعة.

ثم تابعا سيرهما فى فتور وهما يتمنيان إلا تطوى الأرض تحت أقدامهما فتنقضى بانطوائها هذه الفترة الحلوة من حياتهما التى وهبهما أياها الزمن . وأخذ رفاعة يبدى أساه على انقضاء أمد

هذه الخلوة و يتمنى أن لو استحالا طائرى إلف بهذه الواحة يخلوان بها ويبنيان عشهما فيها ، وفطنت وردة إلى مرامى حديثه فاصطبغ وجهها بحمرة الخجل ولكنها استجمعت قواها من الرغبة المتبادلة بين قلبيهما وقالت ولسانها يتعثر استحياء : أن فى يديك تحقيق هذه المنى وما أخال عمك إلا مجيباً رجاءك إذا كشفت له عن رغبتك وأطلعته على سريرة نفسك . فنشط رفاعه وانقلبت رغبته فى البطء إلحاحاً فى الأسراع وود لو رأى نفسه مستقراً أمام عمه فتتحقق أحلامه وأمانيه . . . وسارا يستحثان الخطى حتى أتيا الخيام فالفيا الشيخ حيران قلقاً وقد تملكته الوساوس والريب لغيبتهما . فما أن رآهما وعلائم البشر على وجهيهما النضيرين الباسمين حتى اطمأنت نفسه الطيبة وهدأت . .

ولم يطق رفاعة صبراً على ما تكنه جوانحه فباح لعمه بحبه لوردة وصارحه برغبته فى اتخاذها زوجاً له . . فسر الشيخ بهذا النبأ وقام إلى الفتاة وخطيبها يقبلهما و يباركهما و يدعو لهما أطيب الدعوات . . ثم أهاب بفتاته : —

« هيا ياوردة وهيئى لنا طعاماً فقد نال منى الجوع ولا بد أنكما قد لقيتما فى رحلتكما هذه نصباً »

أعدت وردة الطعام ثم دعتهما إلى المائدة فجلسوا يأكلون ويتندرون ولعلهم لم يذوقوا طعاماً كان أشهى من هذا فقد أضفى عليه الجوع والسرور لذة لا تعد لها لذة .

وجاءهم نفر من أهل القرية مرحبين مهللين وانضم إليهم بعض أعضاء بعثة علمية كانت تنقب عن آثار فى هذه المدينة الخالدة . واتخذ الجمع من حديث الثعابين موضوعاً للتسامر والتنادر . وراح الشيخ حسان يداعب ابن أخيه ويسخر من أفاعيه ويقص عليهم من أخبار الشيخ « عبد الفضيل » عميد قريتهم مع الأفاعى أغرب القصص . فقد زعم الشيخ « عبد الفضيل » فيما زعم أنه كان مسافراً فى الصحراء ومعه بعيران وأدركه لغوب السفر فآوى إلى ظل ربوة يستجم بعض الاستجمام فأخذته سنة من النوم ثم أفاق وقد أضل بعيريه فراح يتفقدهما ورأى على بعد شبحاً ضخماً ظنه أحد البعيرين فلما أتاه وجد الفافاً ضخمة من اللحم يطل من وسطها رأس ضخم يحمله عنق طويل كعنق البعير وتبينه فإذا هو أفعوان كجذع النخلة يبلغ طوله بضع قصبات فقفز الشيخ عبد الفضيل فوق ظهره فاعتلاه وجعل يسوقه بعصاه حتى أوصله إلى آخر السفر ثم نزل عنه وخلى سبيله فعاد أدراجه . وزعم أنه

هبط مع جماعة من صحبه حقل بطيخ فقدم لهم صاحب الحقل عدداً منه فأكلوا حتى امتلأوا و بقيت بقية تركوها حتى الصباح ولم تكن لديهم غير سكين واحدة وضعوها فى إحداها . وقربت الثعابين فى طوافها ليلا بالبطيخ وأفرغت سمها فيه ما خلا تلك التى كانت تحميها السكين . وأصبح الجماعة وهم لا يعرفون مما جرى شيئاً فطعموا من البطيخ فسرى السم فى أجسمهم إلا الذين أكلوا من ذات السكين وكاد يقضى عليهم لولا أن تداركهم الشيخ عبد الفضيل فجاء بوعاء ماء تلا عليه بعض التعاويذ ثم تفل فيه وسقاهم منه فبرئوا باذن الله ! !

وكان رفاعة يستمع لهذه القصص وأضرابها وهو يكاد ينشق من الضحك ورأى لزاما عليه أن يخرج هذه الأوهام من عقول أصحابه فوعدهم أن يكون مسامرهم فى تلك الليالى المقمرة فيقص عليهم القصص الحق عن الزواحف فى شتى شئونها .

المحاضرة الأولى

رأس الثعبـــان

ولما كانت الليلة الأولى وأشرق القمر بر رفاعة بوعده فجلس بين القوم يسامرهم فقال :

« تعرفت إلى صديق فى « المنيا » هو أستاذ التاريخ الطبيعى فى مدرستها الثانوية ، وكانت دراسة الزواحف جزءاً من المنهج المقرر على تلاميذه ، وكان الأستاذ مغرى بدراسة هذه المخلوقات كلفاً بها يتقصى أخبارها ، وقد نشأت هوايته بهذه من أنه كان التقى ببعض علماء الغرب الذين توفدهم حكوماتهم بين عام وعام إلى بلاد الشرق وصحراواته وتفتح لهم خزانات مالها للبحث عن نوع من الحيات لا يكون ممثلا عندهم ، أو لتحقيق الفوارق بين ثعبن وثعبان يكون التبس عليهم ، والعلم عند هؤلاء القوم ثروة ترخص فى سبيل جمعها الجهود ، ويتضاءل أمام توفيرها المـال . وشعر حيال وطنيته بالخزى من أن يتجشم الغرباء المضنيات من بعد الشقة وكثرة النفقة لينقلوا إلى بلادهم علم ما لم نعلم من خواص

شئوننا وصميم أمورنا ، ولا يكون فى مصر رجل واحد يمسح عن جبينها وصمة هذا العار ، فوطد عزمه على أن يكون ذلك الرجل . فنشط للبحث وعكف على الدرس وظل يستجمع من كل مربأة وكل ثنيـة ما تصل إليه يده ، ويتنقل بين معاهد الغرب يستطلعها ما يتطلبه بحثه حتى أخرج عن الثعابين المصرية كتاباً جمع شواردها ، وقيد أوابدها ، ونقله عنه بعض المعاهد الأجنبية المعنية بهذه الدراسات . فاطمأن إلى أنه قد أدى بعض ما يجب عليه من خدمة العلم ومن حق الوطن .

وكثيراً ما كان يخف بعض تلاميـذ الأستـاذ موسى — وهذا اسمه — فينقلون إليه ما يقع تحت أيديهم أو يصل إلى أسماعهم من الثعابين وأخبارها . ولعل هذا كان تزلفاً منهم وتقرباً إليه ، أو لعله معاونة بريئة فيما شغفوا من دروسه وعلمه . .

وقد جاءه يوماً بعض منهم وكنت فى مجلسه ، فدخلوا عليه فى حجرته الخاصة وهو غارق فى بحوثه ، واستأذنوا لرجل من الحواة الذين يحترفون صيد الثعابين فأذن له ، فإذا هو برجل قد فنى جسمه إلا أقله ، ولعل المتنبى قد عناه بقوله :

كفى بجسمى نحولا إننى رجل لولا مخاطبتى إياك لم ترنى

وكان قصير القامة قليل الظل أسمر الجلد واسع العينين نافذ البصر ساحر النظر قد توسط الحلقة الخامسة من عمره ، وفيه نشاط وفيه فتوة قد عصب رأسه بلفافة ضخمة من قماش أبيض ، وأسبغ على جسمه ثوباً أزرق فضفاضاً متهدل الأردان . أما قدماه فكانتا حافيتين لا يتسع ضيق ذات يده لإنعالها ، وقد تأبط خريطة زرها على أحناشه . وفى صحبته جارية صغيرة اسمها « سيدة » أكبر الظن أنها لم تدرج إلى الحلقة الثانية ملتفة فى أسمال بالية سود ، وهى مثال ناطق لأبيها الحاوى وإن امتازت عليه بخفة الروح وظرف الطفولة . وكان ظاهر والدها الشيخ «عمران» يشف عما فى باطنه من براءة وسذاجة وصراحة فجعته المنية فى زوجه أم سيدة وضاق بموطنه فى قنا ، فرحل عنها واستقر به النوى فى بلدة « دمشير » قريباً من المنيا ، فصادف فيها حديقة مهجورة فسيحة الأرجاء ملتفة الأشجار قد مات عنها أصحابها وغفل عنها الخلف الذين خلفوا من بعدهم فلم يعد يتعهدها أحد بتهذيب ، أو تمتد إلى نباتها يد بتشذيب . فتشابكت فيها الأغصان ، واستغلظ فيها حوشى الأعشاب ، واطمأنت إلى وكونها جوارح الطير ، وأنست إلى وكورها سوارح الحيات ، ووجدت

أسراب الضفادع والقوارض رزقاً رغداً . وفشت أحاديث الناس ومزاعمهم عن هذه الحديقة وساكنيها من الجن وحراسها من الأفاعى . فهلعت لخشيتها النفوس ، وتفزعت منها القلوب ، ولم تجرؤ قدم على الدنو من أسوارها حتى فى رابعة النهار . وسنحت الفرصة للشيخ « عمران » لاستغلال هذه الجنة المحفوفة بالمكاره ، وغامر بولوج الغيل على آساده ، ودخول الحصن على أجناده ، واعتمد على لطف احتياله حتى أنس بكل ما فيها . فكان يطرب لتنعاق البوم ، ويهش لنقيق الضفادع ، ويشجى لفحيح الأفاعى . وكانت هذه الحديقة ضالته المنشودة فاتخذ من زواحفها رزقاً له ولابنته ، فيحمل إلى المدينة الأحناش الحية وجلودها وشحومها فيبيعها ويعود بثمنها وهو راض كل الرضا قانع بما قسم الله له من رزق حلال .

وكانت فرصة ميمونة تلك التى وصلته بصديقى الأستاذ موسى فقد أفادت عليه ربحاً وأفاضت عليه علماً .

دخل الشيخ عمران حجرة صاحبى ووقف أمامه مأخوذاً ، فقد رأى غرفة فسيحة تتوسطها منضدة طويلة صفت عليها أوان عديدة يشف صفاء زجاجها عما حفظ فيها من زواحف شتى ،

إن عرف منها شيئاً فقد غابت عنه أشياء ، ورأى الأستاذ محدقاً بمنظاره فى ثعبان يعد صفائح بطنه وحوله بعض تلاميذه يدونون له ما يملى عليهم . وبدت على الشيخ الحيرة فى تفسير هذه الألغاز وكأنما حدثته نفسه بأن هؤلاء السحرة يزحمونه فى رزقه وينافسونه فى عيشه . ولحظ الأستاذ عليه هذه الحيرة فأراد أن يمازحه ويتركه فى حيرته فتشاغل عنه فترة ، ثم رفع رأسه يسأله عما فى جعبته . فأخرج له خليطاً من نواشر ما بين أغبر مطوق بطوق أسود ، أو أصفر مشوباً بحمرة على الجسم ، وأراقم[1] مختلفة ألوانها بين رمادى وزيتونى ورملى به بقع غبراء ، ودساسات رمادية أو مصفرة بها بقع كبيرة غير منتظمة لونها أغبر قاتم أو مائل إلى السواد ، ومقرنات[2] وقرع[3] صفر انتشرت على ظهورها بقع غبراء قد نزعت أنيابها وكمت أفواهها جميعاً دون الدساس . وجعل الأستاذ يتناولها واحداً بعد واحد يفحصها ويودعها صندوقاً بين يديه . ولما كان دور الدساس والأستاذ ممسك به بقابه بدرت منه حركة عصبية وعضه فى أصبعه عضة

(١) Coluber

(٢) Cerastes cerastes

(٣) Cerastes vipera

أدمته ، فاضطرب الشيخ عمران وبدت عليه أمارات القلق خوفاً على صاحبه ، ولشد ما كانت دهشته حين رأى الأستاذ يمسح الدم بقطعة قطن مغموسة فى الكحول وهو هادئ باسم يطمئن الحاضرين إلى أن هذه لا تضيره فى قليل ولا كثير ، وزادت دهشة الشيخ فسأل الأستاذ : هل هو « محوى أو واصل على الرفاعى » ؟ فضحك صاحبى حتى كاد يستلقى من الضحك وقال له : انتظر معى قليلا فسأنبئك بعلم ما لم تعلم .

ودقت الساعة ليحاضر الأستاذ تلاميذه أعضاء جماعة الزواحف وكان قد وقّت لهم من فراغهم ساعات محدودة فى أيام معدودة يختلفون إليه فيها يشهدون التشريح تارة ، ويستمعون للشرح تارة أخرى .

والتفت الأستاذ إلى الشيخ عمران يقول : «إنها لفرصة حسنة أن تشترك معنا فى هذا الدرس ، وليتك حريص على أن تكون معنا فى بقية الدروس إذن لنسمعك رأى العلم فى الثعابين وتقيسه إلى ما علمتك التجاريب والمشاهدات » . فسر الشيخ لهذا العطف ، وشكر لصاحبى تكرمه عليه وتبسطه معه . ولقد واظبت

فيما بعد على حضور سلسلة محاضرات صديق ، كما حرصت على تدوينها . وها كم بعضاً مما تعلمته عنه :

« لعل أول ما يسترعى النظر فى الثعبان الاختلاف الواضح فى شكله عن أشكال سائر الحيوان ، فهو جسم مدمج غير مفصل يسعى بغير أطراف ، على أن كثيراً من الحيوانات قد شاركت الثعابين فى مظهرها الخارجي هذا فانعدمت فيها الأطراف كما هى الحال فى أنواع عدة من الأسماك اتخذت أشكال الحيات وأصبحت تسمى خطأ بثعابين الماء . وهناك طائفة أخرى من الحيوانات الصفدعية[١] لا تشبه الضفدع المعروف فى شىء ، ولكنها أقرب ما تكون إلى الثعابين الدودية الصغيرة لولا أن هذه الأخيرة سريعة الحركة ، ويمثلها فى مصر نوع اسمه (الباح[٢]) وهو أصغر الثعابين عندنا إذ يبلغ طوله ١٩٣ مليمتراً ولون ظهر هذا الثعبان أرجوانى أغبر مشرب بحمرة والبطن شاحب ، وليس من السهل صيده لأنه أملس سريع الزحف قدير على الإفلات ، ولا يعرف بالضبط على أى شىء يعيش . ويرجح أنه

Gymnophiona (١)

Leptotyphlops (٢)

يعيش على الحشرات ، ولا يفوتنا بهذه المناسبة الإشارة إلى أن أكبر الثعابين فى مصر هو الناشر المعروف ويبلغ طوله مترين .
وكما أن فى الأسماك والضفادع كثيراً من أشباه الثعابين كذلك نرى فى الحيوانات الورلية التى منها السحالى والأبراص والورل والضباب وغيرها عدداً كبيراً من الأنواع[1] يصعب على غير المشتغل بالزواحف أن يفرق بينها وبين الثعابين ، ولولا وجود الجفون عند هذه الحيوانات وبعض فروق أخرى لا يتسع المقام لذكرها لانضمت هذه الزواحف بحق تحت سلسلة الثعابين .

ويقول العلم إن الزواحف وهى تضم التماسيح والسلاحف والحيوانات الورلية والحرابى والثعابين ، قد انحدرت كلها من زواحف بائدة لم يبق منها إلا حفرياتها ، وأن الثعابين وهى أحدث الزواحف ظهوراً على الأرض قد تطورت من زاحفات كانت تسير على أربع . والدليل على ذلك أن ضروباً من الثعابين لا تزال تحتفظ حتى الآن ببعض عظام الحوض وبالأطراف الخلفية ضامرة تحت الجلد ما نحسب وجودها عبثاً .

ولا يفتنى كذلك أن أوضح لكم أنه إذا تعددت الأسماء من

---

(١) Anguis fragilis.

ثعابين وحيات وأفاعى فإن مدلولها جميعاً واحد ، على أن بعض العلماء قد جعلوا الحيات اسماً[1] جامعاً وخصوا باسم الثعابين الأنواع الجبلية[2] وقصروا لفظ الأفاعى[3] على السامة التى تحرك فكها العلوى .

وليس بالهين أن نقسم الحيــة إلى أكثر من رأس لاصق بطرف الجسم الأعلى ، وذنب متصل بطرفه الأدنى ، اللهم إلا إذا اعتبرنا الوصلة الدقيقة التى بين الرأس والجسم عنقاً .

وفى الحق أن رأس الحية هو موطن الخطر ، وجماع الشر فيه . ولعل الصواب أن نقول ذلك عن الفم الذى هو أهم جزء فى الرأس. ويجدر بنا أن نلاحظ أن رؤوس الحيات كأجسامها لم تصب كلها فى قالب واحد . فمنها المستطيل الرفيع والعريض المنبسط ، ومنها المدبب والمستدير ، ومنها ما يكون فى مثل ضخامة العنق ، وما هو أضخم منه وأعرض . وفى الرؤوس عيون لم تطبع كذلك على غرار واحد . فمنها صغيرة دقيقة تختفى تحت حراشيف ، ومنها المتوسطة والكبيرة . وفى هــذه العيون على اختلافها

---

(١) Ophidia

(٢) Colubridae وهى تضم الثعابين الطويلة وفيها السام وغير السام

(٣) Viperidae كل حيات هذه العائلة سامة

سحر عجيب إذا سلط على الفريسة جمد الدم فى عروقها فلا تستطيع حراكا حتى يلحق بها الثعبان فيواريها فى فيه . وقد حبت الطبيعة هذا الفم بعظام متحركة ، وانقسم الفك الأسفل إلى شقين يصل بينهما رباط مرن ، فإذا فغر الثعبان فاه اتسع لابتلاع الفريسة الضخمة التى قد يكون حجمها خمسة أضعاف حجمه . وقد يحتال بعض الصيادين لصيد الحيات بربط فرائس كبيرة بالقرب من أجحارها حتى إذا ابتلعتها واستقرت فى جوفها كانت بمثابة الغل لها وسهل عليهم الإمساك بها . وقد شاعت هذه الحيلة بين صيادى (الاصلات[1] فى السودان) فهم يوثقون للأصلة عنزاً خلف جدار قد فتحت فيه كوة ضيقة لا ينفذ فيها جسم الأصلة إلا بمشقة ، فإذا نفذت بمقدمها وابتلعت العنز وهمت بالرجوع ضاقت عنها الكوة وظلت رهينة حتى يدركها الصائد فيقبض عليها .

ومن الطرائف ما يروى عن الأصلات الهندية أن واحدة منها صادفت ابن عرس فسلطت عليه عينيها فشلته ثم التهمته ولكنه لم يكد يستقر بين فكيها حتى أفاق من غشيته والتمس المخرج

---

(١) Python

فوجده بين عظام سقف الحلق غير الملتحمة فظل ينخر فيه بأسنانه الحادة حتى خرقها وقفز منها ولكنه كان قد أصيب بعدة جروح من أسنان فوق عظام الحلق فقضت عليه كما قضى هو على الأصلة. وقد يتساءل متسائل كيف مر ابن عرس فى فم الأصلة وبين أسنانها وفيه آثار من حياة؟ والواقع أن الحيات على اختلاف أنواعها تبتلع الفرائس ولا تمضغها وما أسنانها إلا أسلحة للفتك أو لمنع خروج الفريسة لأنها مدببة ومقوسة إلى الداخل. والمعروف عن هذه الأسنان أنها موزعة على الفكين جميعاً وقد تكون قاصرة على فك دون فك، بل لقد تكون ضامرة أو معدومة ومن الأسنان أسنان صماء ظلت من بدء الخليقة حافظة شكلها لم يطرأ عليها تغيير، ومنها أسنان تحورت فصارت نيوباً ومن هذه النيوب ما لم يتم تحورها فظلت قنواتها ظاهرة من خارجها. ومنها ما قد كمل تحورها والتحمت قنواتها فصارت أنابيب كأبرة المحقن. ومن العجيب أن تنبت هذه الأسنان فى الفك ضعيفة فتقتلع فى حالات الدفاع وفى حركات الابتلاع ثم تعود فتنبت بعد حين.

والأسنان هى مقياس الخطر فى الحيات. فالأسنان الأنبوبية(١)

---

(١) Proteroglyphae

تكون دائماً فى مقدم الفك الأعلى وتتصل اتصالا مباشراً بالغدد السامة فيشتد خطرها . أما الأنابيب[1] القنوية فتكون فى مؤخر الفك وعلى مقربة من الغدة السامة فيسيل السم فى قنواتها تارة وفى تجويف الفم تارة أخرى فيقل خطرها . أما الحيات[2] العواطل من الأنابيب فيسيل السم من غددها إلى تجويف الفم ويصيب الفريسة عن طريق الجراح التى قد تحدثها الأسنان الصماء ويمتد خطرها إلى الفرائس الصغرى . وعلى هذه الأسس يمكن أن نقسم الثعابين إلى سامة ونصف سامة وغير سامة ، على الرغم من أن غدد السم لم يحرم وجودها واحد من هذه الأنواع.

ولقد ذهب بعض الناس إلى أن النيوب تظل محتفظة بسمها فلا يؤمن شرها حتى بعد اقتلاعها . وقد زعموا أن حاطباً من أهل البرازيل خطب عروساً فأهدت إليه فى ليلة الزفاف حذائين طويلين يقيانه نيوب الأفاعى إذا خرج إلى الغابة للعمل فى قطع الشجر. وفى أحد الأيام عرضت له حية من ذوات الأجراس فهم بقتلها وهمت هى بالدفاع عن نفسها فعضته عضة أصابت حذاءه

---

(١) Opistoglyphae

(٢) Aglyphae

ثم تولت عنه وعاد الرجل آخر النهار إلى عروسه وشرع يقص عليها قصته مع الحية ، ولم يكد يتمها حتى تمت كلمة الأجل فيه . وبعد حين بنى بهذه المرأة حاطب آخر ووجد عندها الحذائين فلم يجد بأساً بأن ينتفع بهما ، وما أن احتذاهما أول مرة حتى لقى فيهما حتفه . وبقيت المسكينة وبقى الحذاءان إلى أن فتح الله عليها بزوج ثالث وكان الحمام يترصده فى حذائى صاحبيه فأصابه ما أصابهما، وأخيراً رمى القضاء فى أحضان المرأة المنكودة ضحية رابعة ، وترامت أخبار هذه الحوادث وتطلع الناس إلى كشف سرها فهداهم البحث إلى نابى الأفعى التى عضت الزوج الأول عالقين بأحد الحذائين وكشف لهم بذلك علة موت الضحايا الأربع .

وأفل القمر فأقفل رفاعة باب السمر إلى الليلة التالية .

المحاضرة الثانية

أجهزة الثعبان ووظائفها

وأشرق القمر فى الليلة الثانية فاتخذ رفاعة مكانه من القوم ووصل ما انقطع من حديثه فقال :—

« انتهيت بكم فى الليلة التى سلفت إلى ما انتهى إليه صاحبى فى محاضرته الأولى لتلاميذه وللشيخ عمران وقد وفى رأس الثعبان إيضاحاً وتعريفاً ثم انتقل بهم فى محاضرة ثانية إلى الكشف عن الأعضاء الباطنة فى الثعابين وكيف أنها طويلة ممتدة تتناسب أشكالها وظواهر أشكال أصحابها فقال إن المرىء أنبوبة طويلة تتصل بها معدة مستطيلة لا يفصل بينهما فاصل وفيهما مرونة فلا يضيقان عن الفرائس الضخمة التى يفترسها الثعبان . أما الأمعاء فقصرت وقلت فيها الألفاف وانتهت بمستقيم قصير يفتح فى المجمع وهو الحد الفاصل بين الجسم والذنب ويقع الكبد على امتداد الجانب الأيمن للقناه الهضمية وهو طويل ورفيع ، وعلى مقربة منه توجد المرارة وهى ملأى بالصفراء حتى عند

الجنين . أما البنكرياس والطحال فيقعان على الجانب الأيسر للقناة الهضمية ويفرز الكبد ترياقا يقى الأفاعى خطر سمها الذى تنفثه فى فرائسها وتفرز الغدد اللعابية كذلك إفرازاً يساعد على بلع هذه الفرائس التى يأخذ الثعبان دائماً برأسها خشية أن تعوق الأطراف عن ابتلاعها، وفى الثعابين قناعة وعزوف عجيب عن الطعام فقد تصوم العادية منها بضعة أشهر أما الكبيرة الضخمة فقد تصوم عشرة ولكنها راغبة فى الإكثار من الماء ما خلا الصحراوية فإنها تكتفى بما تجده من سوائل فى جسم الفريسة وعلى الرغم من قوة جهاز الثعبان وقدرته على الهضم حتى لا يدع من الفريسة إلا الشىء الطفيف كالأظافر والشعر والريش الذى تخرجه من (المجمع) فإن هذا الهضم بطىء لا يتم فى أقل من أسبوع فى الصيف وخمسة فى الخريف ويمتد إلى ستة عشر أسبوعا فى الشتاء تبعاً لتدرج الحرارة التى يعتمد عليها الثعبان فى هضم طعامه وتضاءل قلب الثعبان حتى كان أصغر أعضائه وامتدت القصبة الهوائية إلى مقدم الفم لكى لا تعجز عن التقاط الهواء ولا يتعطل التنفس فى أثناء عملية البلع وطالت الرئة اليمنى وزودت بكيس يختزن فيه الهواء فطغت على الرئة اليسرى التى توجد عادة

ضامرة منكمشة وقد تنعدم فيما خلا بعض الثعابين كالأصلات فتتكافأعندها الرئتان وأن كمية الهواء التى يختزنها الثعبان فى رئته تغنيه عن هواء الجو ساعات بل لقد يستطيع أن يعيش فى ناقوس مفرغ هواؤه أكثر من أربع وعشرين ساعة .

ولم يخل من الطول فى الثعابين الجهازان البولى والتناسلى فالكليتان طويلتان يخرج من كل منهما حالب يفتح فى المجمع ولا توجد فى الثعابين مثانة وتقع الخصيتان فى الذكر أمام الكلية ولكل منهما وعاء ناقل يفتح بجوار الحالب ويبلل جدران المجمع بما يفرزه من الإفراز المنوى وموقع المبيضين عند الأنثى كموقع الخصيتين عند الذكر تماماً وتنتهى قناة المبيض بمهبل يمتد فوق المستقيم ويفتح فى المجمع .

وكما تضاءل قلب الثعبان كذلك دق منه المخ واحتفظ الحبل الشوكى بحجم كبير ينتهى بآخر الذنب وضعفت لدقة المخ هذه حاستا السمع والبصر فلا يبصر إلا الأجسام المتحركة ولا يسمع إلا الأصوات العالية ويؤيد ضعف سمعه ضمور الأذن وانعدام غشاء الطبلة إلى جانب دقة المخ وأن ذهب بعض العلماء إلى عكس ذلك وراحوا يدللون على حدة سمع الثعبان باصطدام

الموجات الصوتية بالطرف الخارجى لعظم الركاب وهو أحد عظام الجمجمة ويؤيد رأى هؤلاء فى حدة السمع عند الثعبان قوم يخالفونهم فى تعيين حاسته فيذهبون إلى أنها ليست الأذن ولكنها اللسان إذ ينتشر فيه عصب دقيق يتأثر بأخف التموجات الصوتية وكلا الرأيين لم يؤيد بدليل من الواقع المحسوس الذى أثبتته التجارب كما أثبتت أن لسان الثعبان لا يغنيه عن عينيه الضعيفتين فإنه قلما يمتد به الأجل إذا منى بفقدهما . ولم يعرف أن هنك ثعابين حديدة البصر غير حيات الشجر . ومما هو خليق بالذكر أن الثعبان لا يذوق بلسانه فإنه حتى الآن لم يعثر على أطراف العصب الذوقى فيه .

ودق كذلك العصب الشمى وقصر فتخذ بعض العلماء ذلك دليلا على فقدان حاسة الشم فى الحيات . فبأية حاسة إذن يهتدى الثعبان الذى لا يكاد يسمع ولا يبصر إلى فريسته فى الظلام الدامس ومن أية حاسة تنفذ رائحة الكلوروفرم والنفتالين إلى الثعبان فتضجره وقد تقتله . أيمكن أن يكون ذلك إلا بالشم ؟ وللشم وظيفته الهامة فى تداعى الزوجين الذكر والأنثى إلى التلاقى عند التزاوج . فيوجد على جانبى قاعدة الذنب غدة مستديرة

تكبر عند الأنثى وتصغر عند الذكر وتقع خلف قضيبيه المتصلين بفقرات الذنب وتفرز هذه الغدة مادة كريهة الرائحة ترسلها الأنثى على اجنحة الهواء إلى أنف الذكر سفيراً لاغتلامها فيجاوبها بريح مثلها تشمها هى الأخرى . ولا يزالان كذلك يتقاربان على مهب هذه الريح حتى يتلاقيا ويتعانقا فتنشط فى الذكر حركة فرعى الشريان الظهرى الذى يكتنف تجويف اسطوانتى القضيبين ويملأ انسجتهما فينتشران وينتفخ سطحاهما الأجوفان فيبرزان وتبدو الأشواك المنتشرة عليهما فينشبهما فى جدر مهبل الأنثى بعد أن يكون قد ضمهما وكوّن من شقيهما المتقابلين قناة تخرج منها الحيوانات المنوية التى تجمعت فيها إلى قناة المبيض وفيها تخصب البويضات . وقد يتم تكوّن اجنتها عند بعض الأنواع فى هذه القناة ثم تفقس فى داخلها أو بعد الخروج منها مباشرة . وأغلب الثعابين (تضع بيضها) الذى يتراوح عدده بين ٦و٤٠ بيضة فى مكان يتوافر فيه الدفء والرطوبة فتضعها بين الصخور أو تحت أعشاب الصحراء . وقلما تعنى الحيات بهذا البيض بعد وضعه . على أن بعض الثعابين الضخمة تحتضن بيضها وترتفع حرارة جسمها بضع درجات فى

أيام الاحتضان والأمهات من الثعابين لا تكفل صغارها ولذا تخرج الصغار من البيض مزودة بكل ما يعوزها فى حياتها من قدرة على السعى لكسب القوت وبالسم والناب فى الأنواع السامة للفتك بفرائسها والذود عن نفسها وينشط نموها فى الأشهر الأولى ثم يتدرج تدرجاً طبيعياً بعد أن تكون قد ترعرعت وقويت وتظهر علامات هذه القوة فى سرعة تعقب الفريسة وتسميمها أو الالتفاف حولها وهصرها تحت ضغط عضلاتها المفتولة التى تمتد على طول الظهر والتى تكتنف الضلوع وتتصل بها وبالفقرات وهى التى تسبب الزحف بتقلصها فيحدث انقباضها اندماج الجسم بتعرجات متناوبة يمنة ويسرة . ويساعد فى اتمام هذه العملية سهولة التواء العمود الفقرى وحركة الضلوع العائمة وتتصل بهذه الضلوع الصفائح العريضة العديدة التى على بطن الثعبان بنسيج عضلى ويمكن اعتبار هذه الصفائح أقداما وتلك الضلوع سيقانا وكأنما يسعى الثعبان على أرجل داخلية لا يفطن لها الناظر وقد تستمر الحركة عند الثعابين حتى بعد قتلها وسلخها وخروج الدم منها وقد يظل الرأس بعد فصله يتحرك حركة مستمرة وينساب الجسد يضرب فى الأرض على غير

هدى وترجع هذه الحركات إلى حيوية العضلات ولقد رأيتم ذلك رأى العين فى عمليات التشريح التى أجريتها ولعل هذه المشاهدات قد افسحت للناس مجال التندر بحوادث لم تسلم من المبالغة عن بعض اجزاء من الثعابين فصلت عن أجسادها ولم تنج بعض الضحايا من شرها . .

وأقص عليكم نادرة رحالة إنجليزى كان يسير فى أحد أغيال أستراليا ومعه عدد من كلابه فظهرت له حية بغيضة قبيحة الخلق كريهة المنظر فى رأسها قرون ناتئة وحول عينيها وأنفها صفائح بارزة ويسميها لذلك الإستراليون (حية الموت) فأغرى بها الكلاب فأنقض عليها اثنان ذهبا ضحية النضال معها وسدد إليها الرحالة رصاصة أطاحت رأسها عن جسمها فذهب كلب ثالث يداعب الرأس الطائر فأصابته منه عضة ألحقته بأخويه .

وكما يزحف الثعبان على سطح الغبراء يستطيع أن يتسلق الجدر والأشجار ويقفز فى الهواء قفزات واسعة وكم أزعج بهذه القفزات فارساً فوق جواده أو جمالا فوق جمله بل لقد يقفز فى مركبات القطارات السريعة وهذا سر تسمية بعض الثعابين

بالطيارة[١] وكذلك يجيد السباحة فى الماء بل لقد ألفت بعض الحيات[٢] العيش فى البحر والتوالد فيه وهيأتها الطبيعة لهذه البيئة فضمرت الصفائح البطنية فى بعضها وامحت فى البعض الآخر واستحالت أذنابها زعانف كزعانف السمك وانقطعت كل صلة بينها و بين البر فلا تخرج إليه ولا تطيق الزحف عليه ولهذه الثعابين خطرها الداهم فكم وقعت فى شبكة صياد فى الخليج الفارسى وهو جاهل بها غافل عن سمها فلقى حتفه من أنيابها .

وتنشط حركة الحيات وتهدأ تبعاً لدفء الجو الذى تعيش فيه و برده فيكثر دؤوبها فى الربيع والصيف وتفتر وتخمل فى الخريف والشتاء وإذا اشتد البرد وأدركها القر أخلدت إلى السكون التام ولجأت إلى البيات الشتوى فى أجحارها وفى هذا الفصل تهبط درجة حرارة أجسامها خمس درجات أو أكثر ولعدم ثبات درجة هذه الحرارة سميت الحيات وأمثالها بذوات الدم البارد . وكثيراً ما يستغل بعض الحواة المحترفين هذه الظاهرة فى التمويه على جمهور المتفرجين وخداع الناظرين ليستجلبوا إعجابهم ويستدروا أموالهم ومن طريف ما يروى فى ذلك أن حاوياً إسبانياً كان يظهر على

(١) Coluber rodorhaichis, rogersi

(٢) Hydropunae

بعض المسارح وقد لف حول صدره وعنقه أصلة ضخمة يبلغ طولها نحو اثنى عشر متراً والمعروف عن الأصلة أنها قد تشتبك مع التمساح العظيم والنمر الخطير وأضرابه من الوحوش الكاسرة فاذا التفت حولها حطمت أضلاعها وأزهقت أرواحها فيثير مظهر الرجل بين أطوائها عجب النظارة و إعجابهم و يقابلونه فى كل مرة بعاصفة داوية من التصفيق وكانت له خليلة تعينه على سبك حيلته فتغمر الأصلة قبيل ظهور صاحبها بها على المسرح فى حوض من الماء المثلوج ثم تخرجها خدرة فاقدة الحس فلا تضير الرجل شيئاً و ينخدع الجمهور الساذج بهذه الحيلة المحبوكة . ولحظت الخليلة على صاحبها فى أيامه الأخيرة أنه كان يغافلها و يغازل بعض الممثلات والمعجبات بقوته وجرأته و يتصل بهن اتصالا مريبا أثار غيرتها واشتدت الغيرة فصارت حقداً و اشتد الحقد فصار بغضاً وأصرت على الانتقام لنفسها منه فأغفلت الأصلة فى إحدى الليالى ولم تغمرها بالماء كعادتها وحملها الظلوم الجهول إلى المسرح بين هتاف الناس وتهليلهم وما هى إلا لحظات حتى وجم القوم كأنما سكرت أبصارهم وتجلت أمارات الفزع على وجوههم ودب الإضطراب فى صفوفهم فقد رأوا الأصلة تضيق الخناق على الرجل وتشد على عوده الرشيق بمجرد إحساسها

بحرارة جسمه فاحتبس الدم فى وجهه وتدلى لسانه من فمه ثم سقط على خشبة المسرح جثة هامدة . حدث ذلك وخليلته من وراء الستار تنظر إلى صنع الحية مستشفية من غيظها منه ونقمتها عليه والمرأة لا تقف عن ارتكاب أفظع الجرائم إذا أكلت الغيرة قلبها ولعب الشيطان برأسها . وكذلك ذهب المسكين ضحية كيد إمرأة كانت صحبتها أشد خطراً عليه من صحبة الحية ولعل فى مثل هذه الحوادث عظة للغواة المفتونين بمظهر النساء وخضوعهن ولين حديثهن فليس ظهورهن فى هذه الجلود بواق من شرهن لأنهن إذا انقلبن كان فى انقلابهن خطر لا يدفع كالحيات التى تعجبك أجسامها ويستهويك لمسها وتروقك ألوانها الباهرة الفاتنة ما بين أسود فاحم وزيتونى قاتم وأصفر ناصل وذهبى لامع وجلود قد وشتها خطوط طولية متوازية أو عرضية متلاحقة أو غشتها قطع متراكبة مختلفة الأصباغ متباينة الألوان أو غير هذا أو ذاك مما تذهل ريشة الفنان المبدع عن تصويره . ولكنها على الرغم من هذا الجمال قد كمن فى أنيابها الموت . ولا يمكن التعويل على هذه الألوان فى التفريق بين نوع ثعبان وثعبان فقد أربت أنواعها على سبعمائة وألف ، تفرقت فى جميع بقاع الأرض وتجمعها تسع

عائلات وخصت المنطقة الحارة بأكثر هذه الأنواع ولا بد لتمييزها من الخبرة الواسعة والعلم الوفير ومن أهم ما تميز به اختلاف الأسنان وعدد حراشيف الرأس والظهر وصفائح البطن .

وأفل القمر فأقفل رفاعة باب السمر إلى الليلة التالية . . .

أعداء الثعابين والسم

وما أشرق القمر فى الليلة الثالثة حتى إتخذ رفاعة مكانه من القوم ليصل ما انقطع من حديثه وقال :

لقد انتهيت بالأمس حيث انتهى صاحبي من محاضرته الثانية فى شرح ناحية هامة من نواحى وصف الحيات والآن ننتقل معه حيث انتقل صديقى إلى الكلام عن أعداء الثعابين قال : إن لها كما لغيرها من سائر المخلوقات عداة من جنسها أو من دونها لتحد من تفشيها وتفسح الطريق لغيرها فى الحياة فكان لها من جنسها أنواع عدة تعدو عليها . فالناشر[1] البنغالى الذى يسميه الهنود «ملك الحيات» لا يجد أكلة أشهى من ثعبان يلتهمه . ومن روايات المرجفين عنه أن له حاشية قوامها عشر حيات فاذا اشتهت نفسه الطعام أرسل صفيراً خاصاً متى سمعته الحيات أسرعت إلى المثول فى حضرته فيختار أحداها غيلة فينفث فيها سمه ثم يبتلعها . ومثل

(١) Najahanna

هذه الأقاصيص لا يعوزها الدليل على الشك فى صحتها وإنما ولدها عدوان هذا الثعبان على بنى جنسه .

وهناك ضروب أخرى ليست أقل خطراً على بنى جنسها من الناشر البنغالى وإن كانت غير سامة وإن أجدرها بالذكر « المسرانا »[١] وهى حية اليفة من حيات البرازيل يحتفظ بها الناس فى بيوتهم ولا خطر منها عليهم ولا على أطفالهم ودواجنهم . وغذاؤها الوحيد الثعابين وأحبها إليها أردأها وأنكرها كذوات الأجراس التي لا تكاد تظفر بها المسرانا حتى تقبض على عنقها بالنواجذ وتقتلها ثم تعود إليها فتواريها فى جوفها . وقد كان حضرة صاحب الجلالة المغفور له الملك فؤاد الأول بما أوتى من سعة علم وحب اطلاع وبحث كل ما يعود على أمته بنفع يهتم بشئون الزواحف اهتماماً كبيراً فاعتزم نقل عدد من هـــذه الحيات إلى مصر لإكثارها فى المناطق التى تكثر فيها الحيات الخطرة لتقضى عليها كالناشر والبخاخ والقرنة .

أما الخضارى[٢] فلا يقتصر غذاؤه على القوارض بل يفترس

---

(١) Mussurana

(٢) Malpolon monspessulana

كذلك الثعابين فيشلها أولاً بسمه ثم يبتلعها بعد أن يتأكد من موتها ويعيش هذا الثعبان ويختفى بين أوراقها فيصعب العثور عليه نظراً للونه الأخضر المشرب بالصفرة .

ولأبى السيور الغيطى (١) الشرس معارك مروعة مع الثعابين تنتهى عادة بانتصاره عليها وقتلها وابتلاعها . وهذا الثعبان جرىء كثير العض سريع الحركة فإذا ما ظفر بالغريبة وهى أفعى قاتلة التف حولها وخنقها بعضلاته وقد يقتلها بسمه ثم يبتلعها . ويكثر هذا الثعبان فى الحدائق والحقول ولون ظهره زيتونى وعليه خطوط صفر . ولعل من أظرف ما يروى من شأن هذه العداوة أن بعض أنواع الحيات مترصد البعض الآخر حتى إذا ظفرت هذه بفريسة وابتلعتها انقضت عليها وافترستها فكأنها فازت بفريستين فى وقت واحد .

وكذلك سلط على الثعابين من الأجناس الأخرى عداة عديدون نجتزئ بذكر بعضها ونعرض عن بعض خشية الإطالة والملل .

فالنملة الصغيرة تجند جنودها ثم تزحف على الثعابين فتجد فى

(١) Psammophis sibilans

لسع شفاهها وعيونها ولا تزال بها حتى تقضى عليها وتلتهمها فلا تدع منها إلا عظاماً عارية ولا تجد الثعابين إلى مقاومتها حيلة .

وللثعابين نوع من القراد الدقيق يعلق بها فإذا صحبها إلى أجحارها أو إلى دور أسارها وتكاثر فى أرضها فلا سبيل إلى خلاصها منه ويظل يشرب من دمها حتى يهلكها .

ولو لجأت الثعابين إلى البحر لوجدت سمك القرش يترصدها فإذا وقعت بين أسنانه الماضية قطع أوصالها وغيّبها فى جوفه .

وهى إذا غرتها نضرة الرياض وحامت حول غدرانها فقد لا تنجو من قنفذ ماكر إذا اشتم رائحتها فى سواد الليل أو فى بياض النهار أقبل عليها غير هيـاب ولا وجل حتى إذ كان منها على قاب رفع أنفه ونشر شوكه فكان له بمثابة الخوذة والدرع والسلاح ثم يلتقى الخصمان فيمكن القنفذ للثعبان أن يعضه عضة وعشرا وعشرين دون ان يحدث السم فيه أثراً لقوة مناعته ثم ينقلب الثعبان مثخناً بالجراح من أشواك القنفذ منهوك القوى من النضال فينقض عليه ويقبض على عنقه ويخلص الكون من شره .

وأشواك القنفذ ليست درعاً تقيه شر الأفاعى وسلاحا ينازلها به فحسب ولـكنها وقاية ضد كل عدو له ولهذا الحيوان النافع الوديع

المولع بالعزلة أيام يكمن فيها تحت أوراق الشجر الجافة التماساً الدفء فتطارده الكلاب المؤذية وتخرجه من مكمنه إلى العراء تحت القر والطل فيقضى عليه وهو أجدر مايكون بالمحافظة جزاء وداعته وانتفاعا بشجاعته .

وللثعابين من ابن عرس عدو له خطره فهو إذا خرج ليلا يعبث بين جدران البيوت فى حظائر الدواجن يعدو عليها و يقطف رؤوسها وصادف ثعباناً طعنه من خلف وحاول تمزيق منطقة الذنب منه وكثيراً ما تتاح الفرصة للثعبان فينقلب عليه وإذا تمكن من عضه عضات محكمة فقد تودى بابن عرس لأنه أقل مناعة ضد سم الأفاعى من القنفذ واضرابه .

أما أبو منتن وهو حيوان قريب الشبه بابن عرس بعيد عن مثل خفته ونشاطه شديد الكسل فى النهار دؤوب فى الليل أكتسب اسمه من افراز كريه تفرزه غدد خاصة فيه . تمر به الحيات نهاراً فلا يأبه بها ولا يحاول مهاجمتها ولكنها إذا وقعت تحت نظره ليلا فهيهات أن تسلم من أسنانه الحادة ولا تغنى عنها أنيابها السامة فى مدافعته شيئا فقد توافرت فيه المناعة ضدها .

والنمس المصرى أو فأرة فرعون يخرج تحت ستار الليل

باحثاً عن فأر أو طير أو حفرة عامرة ببعض الثعابين فإذا صادف حية فالويل لها من حدة نابه ولا خوف عليه من سم نابها فقد أوتى من المناعة قسطاً وافراً وله مع الحيات مناورات شائقة يكثر فيها الكر والفر حتى يتمكن من رأسها فينقض عليها ويشتد حنقه فيظل يضرب بها الأرض وهو يزمجر حتى يميتها .

وللثعلب كما للنمس فى قتال الحيات حيل ومداورات فإذا هى هاجمته ألقمها ذنبه بعد أن ينفش شعره فلا تصل أنيابها إلى جسمه الخالى من كل مناعة ضد سمها ثم يجذب ذنبه من فيها بسرعة وقوة فتترم أنيابها ولا يزال بها كذلك حتى يفض أفواهها ويأمن خطرها ، ثم ينقلب عليها فيمتك بها . ولعل الحواة أخذوا عنه هذه الحيلة فتراهم فى صيد الثعابين يلقمونها قطعة من الصوف مثبتة فى طرف عصا فإذا عض عليها الثعبان قبضوا على عنقه قبضة لا يستطيع الإفلات منها .

وكما كان للثعابين عداة فى البر والبحر لم يخل من أعدائها الجو فالغربان تنقض على رؤوسها من السماء فتظل تنقرها دون أن تظفر الثعابين بعضة تدفع غائلة الغربان عنها فتخر صريعة أما الصقور الجوارح فإذا حاولت مهاجمة حية هبطت على جسمها

فيتسع المجال للحيات إلى عضها فتذهب ضحية لسمها .

وكل خطر على الثعابين من عداتها لا يقاس بخطر الإنسان عليها وعداوته لها فهو يستخدم عقله وعلمه وقوته فى إبادتها وتعرف أساليب القضاء عليها ودراسة بيئاتها وأنواعها والتفريق بين سالمها وخطيرها وتحرى أسباب التخلص من سمها والأمصال الواقية منه .

ولما كانت الطبيعة حريصة على المحافظة على بقاء كائناتها فقد وهبت الثعابين من مماثلة البيئة ميزة طبيعية تستغلها فى التخفى عن أعدائها . مثلها فى هذا مثل الحرباء والحشرات وغيرها التى تكتسب لون الوسط الذى يحوطها فيصعب على عدوها الاهتداء إلى مكانها . غير أن هذه المماثلة ليس فيها كل النجاء . فالعدو يعرف عدوه ويعرف كيف يناله مهما تغيرت ألوانه واستحكمت مكامنه . .

على أن الطبيعة وقد سلطت أبناءها بعضهم على بعض قد مدت الجميع بأسلحة يدفعون بها الضر عن أنفسهم ويوقعون بها الأذى بغيرهم .

فالبكتريا والفطر لها سلاحها السام الذى تنفثه فى المواد الغذائية

كالأغذية المحفوظة والبطيخ . وأخص بالذكر هنا «البطيخ» إذ يقرن الناس عادة بين فساده و بين الثعبان فيتهمون الثعبان ظلماً وزورا إذا تركوا البطيخ معرضا للهواء بأنه نفث فيه سمه أو كما يقول عامتهم «بخ» فيه أو «شمه» . . والحق أن الثعبان برىء مما يتهمون فما فسد البطيخ إلا من سموم البكتريا التى يحملها الهواء

وهناك نباتات أخرى خضراء نضرة فى عصارتها سموم تقضى على الحيوان والإنسان . . .

وحتى الحيوانات الدقيقـة لم تخل من أنواع السموم تفرزها فتشل بها حركة فريستها وتلتهمها . . وكذلك الحشرات والعناكب لم تحرم هذا السلاح الفتاك فى غددها .

أما الأسماك فإن الأنواع السامة منها تكون عادة ذات ألوان خاصة ولبعضها أشواك طويلة مدببة و بعضها على هيئة الثعابين . وشكلها عادة قبيح مخيف يبعث الرعب فى قلوب أعدائها التى تجد فى التهام بويضاتها حين وضعها إذ ترى فيها نسل عدوها . . ويوجد السم فى هذه الأسماك فى أبسط صورة أى فى دمها ثم ينتشر فى جميع أجزاء جسمها وخاصة فى الكبد والأعضاء التناسلية . فاذا أكلت هذه الأسماك دون طبخ تسمم جسم آكلها . . ويحكى

فى ذلك أن أحد الإيطاليين شرب قدراً من دم « الجريس » المسمى بثعبان السمك ممزوجا ببعض النبيذ فظهرت عليه أعراض التسمم فضاق تنفسه وزاغ بصره واضحت عيناه كقطعتين من زجاج جامد لا نور ولا حياة فيهما لولا أن أسعف لقضى . .

ويوجد سم السمك فى غدد فى افواهها يتسرب منها إلى تجويف الفم ويصل إلى جسم الفريسة بوساطة الجروح التى تحدثها الأسنان غير المجوفة والتى لاتتصل بالغدد . . وقد توجد هذه الغدد السامة تحت زعانف الأسماك وأشواكها التى تكون فى العادة مجوفة وأكثر ما توجد عند غطاء الخياشيم . وقد تكون هذه الغدد منتشرة تحت الجلد حيث تفرز افرازاتها السامة . وقلما تهاجم هذه الأسماك الإنسان وإنما يصيبه سمها إذا هو وطىء بقدمه إحدى أشواكها أو لمس بيده زعنفة من زعانفها .

ويؤثر سم الأسماك تأثيراً مباشراً على الأعصاب ويسرى الألم فى المرىء والأمعاء ويعقبه مباشرة ضيق فى التنفس وهبوط فى القلب وخلل عام فى المركز العصبى وتنتهى الإصابة فى الغالب بالوفاة

وللضفادع أيضاً سلاحها من السم الذى يكمن فى غدد فى جلدها

أما «السحالى» فلا يعرف غير نوع[1] سام واحد منها ما يوجد فى صحراء المكسيك . ولهذا النوع غدد سمية فى الفم وأسنانه مجوفة .

اما الطيور والثدييات فخالية من الغدد السامة وقد عوضت عنها باسلحة غير السم تشهرها عند الفتك بفريستها أو حين الذود عن حياتها كالمخالب والمناقير والأسنان والأظافر . غير أن بعضها قد زود بغدد شبه سامة يستعين بافرازها فى الدفاع عن نفسه . ومن هذا البعض عائلة ابن عرس ومنها «ابو منتن» الذى يفرز إذا أحس خطراً يهدده سائلا من غدة خاصة . وكثافة هذا السائل دون كثافة الماء ولونه أصفر ذهبي وهو قابل للاشتعال بلهب ساطع تنبعث منه رائحة كبريتية كريهة . ولهذا السائل تأثير شديد سيء على الأغشية وإذا أصابت العين نقطة منه التهبت وإذا تنشقه الإنسان تخدرت أعصابه ..

ويقال إن فى اليابان فأرة سامة تحدث عضتها حمى متقطعة وتظهر فى مكان العضة بقع زرق محمرة ويشعر المصاب بآلام عصبية ويعتريه ذهول ويحس قرعاً فى أذنيه ويستشعر خوفاً من الضوء ويتصبب عرقه ويصيبه انحلال فى القوى ثم يقع فى غيبوبة . .

(١) Helodcrma suspuctum

أما الثعابين فتفرز سمومها المختلفة التأثير من غدد خاصة . ويحدث الإفراز بواسطة انقباض العضلات المتشعبة حول هذه الغدد والمعروف ان الثعابين السامة قلما تفرز سمومها . أما الأفاعى فلا ينقطع لسمها افراز حتى إذا هى فقدت أنيابها . إذ أن سمها يسيل من قناة الغدد السمية إلى تجويف الفم فيلوث الأسنان الصغيرة. ولكن قل أن تكون اللدغة فى مثل هذه الحالة قاتلة . و يلاحظ عادة على الثعابين السامة أنها تفقد الميل إلى اللدغ إذا هى فقدت أنيابها

ومن الثابت المحقق انه لا يمكن إرغام الثعابين على نفث سمومها نظراً لقوة عضلات أفواهها فهى لا تجود بسمها إلا بمحض إرادتها وفى حالة ثورتها . ولكن شوهد أن «الصل» (الكوبرا) قلما تهدأ لها ثائرة أو ينى عن المهاجمة .

وللبخاخ(١) وقليل من الأنواع الأخرى طريقة غريبة فى قذف سمه من فتحات أنيابه . فليس زعما باطلا ما يقصونه عن مقدرة هذه الثعابين على أحكام الرماية وإصابة سمها الهدف الذى تقصده وهو عين الفريسة . فقد أثبتت التجارب أن أكثر ما تصيب هذه القذائف السامة من جسم الفريسة العين . وأن لها

(١) Naja nigricollis

تأثيراً سيئاً على القرنية والملتحمة قد يذهب أحياناً بالبصر. ويرجع قذف السم على هذه الصورة إلى سرعة وقوة الهواء المنبعث من الرئة حاملا معه السم المتطاير كرذاذ المطر. ويكون هذا السم فى بادئ الأمر لزجا شفافاً فإذا جف صار لونه رمادياً ضارباً إلى الصفرة..

وبفضل ما كشفت عنه التجارب من أن السم فى الثعبان من المواد « التوكسينية » المماثلة لسم البكتريا والمشتملة على «انتيجين» أى المواد التى تولد الأجسام المضادة فى الجسم) أصبح من المستطاع استخدام هذه المواد السامة فى عمل الامصال المضادة للتوكسين.

وليس من السهل تعريف سم الثعبان. فهو عبارة عن مقادير صغيرة من المركبات الكيميائية — سيأتى تفصيلها فيما بعد — إذا سرت فى الأجسام الحية غير المحصنة أصابتها بأذى شديد إن لم تفقدها الحياة. غير أن هناك عوامل أخرى — أغلبها طبيعى لها أثر غير قليل فى تأثير هذه السموم. فمثلا تأثير السم فى جسم الطفل يختلف عنه فى جسم الرجل. فأغلب ما تكون النتيجة فى الحالة الأولى وفاة عاجلة بينما هى قد لا تعدو أضراراً طفيفة لاتلبث أن تزول فى الحالة الثانية. وكثيراً ما نجا أناس من تأثير هذه السموم تبعا لدرجة قوة المقاومة الطبيعية الكامنة فى أجسامهم

كما يمتاز كثير من الحيوان بمناعة قوية ضد اللدغات السامة. وليست هذه المناعة قاصرة على أجزاء خاصة من الجسم تحول دون سريان السم أو توغله فيه كأشواك القنفذ والطبقة الدهنية فى الخنازير وريش الطيور وإنما تقوم هذه المناعة على استعداد طبيعى عام فى أجسام هذه الحيوانات.

وتختلف خواص السموم باختلاف أنواع الثعابين وحجمها وغذائها. كما تتفاوت كمية سمها باختلاف فصول السنة. فتفرز الثعابين فى فصل الصيف سماً أكثر مما تفرزه فى فصل الشتاء.

وبنقع غدد الثعابين فى الماء المقطر وترشيحه نحصل على سائل متعادل أو قلوى خفيف التفاعل لا يقل تأثيره الفسيولوجى كثيراً عن تأثير السم ذاته.

والسم عادة شفاف إلا فى حالة التهاب الغدد السمية فقد يتعكر بفعل الخلايا المخاطية والكريات الدموية البيضاء. وهو لا طعم له ولكن قيل عن سم الكوبرا أنه مر المذاق. وهو عديم الرائحة غير أنه فى بعض الأحيان قد يكتسب رائحة منبعثة من جسم الثعبان.

وسواء أكان السم سائلا أم جافا فإنه قابل إلى حد ما للذوبان فى الماء المقطر أو فى محلول ملح الطعام الفيسيولوجى. ويبدو الماء

المذاب فيه السم هلامياً وإذا ترك المحلول مدة من الزمن تكونت فيه رواسب من المواد الزلالية والمخاطية وبقايا من الخلايا المخاطية

وتفاعل سم الأفعى حمضى وهو فى الثعابين إما حمضى خفيف أو متعادل وهو يتكون من خمائر ومواد زلالية ومخاطية ودهنية وأملاح . كما يحتوى على ماء بنسبة ٦٥ — ٨٠ فى المائة . والعناصر المؤلف منها السم هى الكربون والأزوت والكبريت والزرنيخ

وتختلف السموم من حيث مقدرتها على تحمل الحرارة . فبينما ترى سموم الثعابين تتحمل حرارة فى درجة ١٠٠ نجد سموم الأفاعى تضعف عند درجة ٧٠ — ٨٠ وإذا ما سخنت سموم الثعابين حتى درجة ٧٥ انفصلت عنها الأجسام الزلالية ورسبت وأمكن الحصول على خلاصة السم بمعالجة السائل بعد ترشيحه بالكحول

والمعروف أنه ليس لسم الثعابين تأثير ضار إذا أخذ عن طريق الجهاز الهضمى الخالى من الجروح . ويرجع الفضل فى بطلان تأثير السم فى الجهاز الهضمى إلى تأثير العصارات الهضمية .

وكان الرأى الشائع حتى سنة ١٧٩٤ أن لمصل أى نوع من الثعابين خاصية إبطال سموم أنواع الثعابين الأخرى إلى أن أثبتت التجارب أن لكل مصل صفة لا يشاركه فيها غيره . فمصل الكوبرا

مثلا لا يقى من سم الأفاعى . وكان لهذه النتائج العظيمة خطرها فى كشف الستار عن وسائل العلاج الحديثة .

والطريقة المتبعة فى صناعة الأمصال تجرى كالآتى :

يؤتى بالسم فيمخض ويرشح ويوضع فى أوان زجاجية منبسطة داخل إناء التجفيف فى درجة حرارة ٣٧ ثم تذاب كميات كبيرة من السم فى الجلسرين على شرط أن يكون مجففاً ومعقماً ويحفظ فى درجة حرارة ٣٧ حتى يتخلص من البكتريا ويضعف فى الوقت نفسه السم دون أن يفقد خواصه السمية وبذا يصبح صالحاً للاستعمال . أما إذا حقن به مباشرة فقد يضر بالحيوان ضرراً بليغاً وتستخدم لهذا الغرض الخيل والبغال لأنها تعطى كميات كبيرة من المصل . فتحقن تدريجياً وفى فترات متفاوتة بكميات محدودة من هذا السم مع ملاحظة حالتها الصحية أثناء ذلك وبتكرار هذه العملية تتكون فى دم الحيوان الأجسام المانعة . فيؤخذ جزء من دمه ويترك حتى يتجمد وينفصل عنه المصل .

وقد عنى الناس منذ القدم بوصف الأعراض التى تظهر على الإنسان إذا عضه ثعبان . وقد طابقت هذه الأوصاف التجارب العملية التى أجريت أخيراً على سموم الثعابين .

وتختلف أعراض التسمم الناشئة عن عضة الثعبان عن الأعراض الناشئة عن لدغ الأفاعى .

فعضة الثعبان الناشر تحدث تغييراً موضعياً طفيفاً فيكون الألم يسيراً وبعد قليل يبدأ شعور بعدم الراحة . ويكون النبض فى مبدأ الأمر سريعاً ثم يأخذ فى البطء . ويلى ذلك ضعف فى السيقان ثم يدب الشلل فى الأعضاء . أما التنفس فيبدأ ببطء ثم يسرع . ثم يغتمر المصاب فى غيبوبة وعندما يشل مركز التنفس تحدث الوفاة . ويتم ذلك بعد بضع ساعات أما عضة الأفعى فتحدث ألماً موضعياً شديداً وتسبب توسيعات فى الأغشية ورشحا دموياً مصلياً . ثم تظهر الأعراض العامة للتسمم كالقىء. والإسهال وإدماء الأنسجة المخاطية . والأمل فى الشفاء من عضة الأفعى أكبر منه فى شفاء عضة الثعبان .

ويختلف التسمم من حيث سرعة ظهور أعراضه وسيره ونتيجته باختلاف كمية السم ونوعه وموضع اللدغة ومبلغ سريان السم فى الدم

والجلد والغشاء المخاطى السليمان لا يمتصان السم تقريباً .

ولا يؤثر سم الناشر إذا أخذ عن طريق الجهاز الهضمى . أما سم الأفعى فيحدث التهاباً فى الغشاء المخاطى للمعدة ونزفا دمويا فى

قناة الجهاز الهضمى . ويقتصر أثر البخاخ على العين فى الألم المبرح والالتهاب والعمى الجزئى أو الكلى وقد يحدث أن يرتد البصر إلى العين بضع مرات خلال شهر أو شهرين ثم يفقد الإبصار فى غالب الأحيان إلى الأبد . ويتكون على القرنية عادة طبقة بيضاء غير شفافة . . .

وكان الناس ولا يزالون يفزعون لسماع خطر الثعابين ويرهبون جانبها ويتحاكون بأخبار لدغتها القاتلة . ولعل هذا كان الباعث لهم على محاربتها والافتنان فى اتقاء شرها . وهداهم بحثهم وتفكيرهم إلى اكتشاف الترياق الذى فيه شفاء لهم من لدغتها ومن كثير من العلل والأمراض كالشلل والصرع والجرب وغير ذلك . . . وأول من اكتشف الترياق طبيب من جزيرة كريت كان يعمل فى حاشية القيصر « اندروماكوس » فكان لكشفه أثر عظيم فى ذلك العهد . ويستخلص الترياق من الأفاعى بعد طبخها بجميع أجزائها ومحتوياتها من الأمعاء والكبد والرأس أيضاً بغددها السامة . وانقضى زمن ليس بالقليل قبل أن تزول أهمية هذا الترياق . . على أنه لم يبق منه غير دهن الثعابين تستعمله الغانيات لإزالة النمش من أجسامهن وليكسب بشرتهن نعومة وطراوة . .

وكان الرومان فى حالة الإصابة بلدغة الثعبان ينصحون بتعاطى النبيذ مضافا إليه الكمون والفلفل والثوم . كما كان البراهمة يشيرون باستعمال « حجر الثعبان » الذى أثبتت الأبحاث الحديثة أنه كان يصنع من العجم الحيوانى فيمتص السم . و يعتقد أهالى البرازيل أنه يكفى لشفاء المصاب أن توضع على الجرح ضفدعة حية بعد شق بطنها كما أنهم يتقون مهاجمة الثعابين لهم بالنوم على جلد الأيل اعتقاداً منهم بأنها لا تقربها لأنها من أعدائها . . ويستعين أهل مصر على الإستشفاء من لدغ الثعبان بأن يوضع على موضع اللدغة الحمام بعد ذبحه مباشرة ونتف ريشه بسرعة قبل أن تزول من جسمه حرارة الحياة . .

أما طريقة العلاج الحديث فينبغى أن تسير كما يأتى :

يبدأ أولا بمحاولة وقف انتشار السم فى الجسم وحصره فى منطقة الجرح لمنع وصوله إلى القلب وذلك بأن يربط الجزء الأعلى مكان الاصابة ربطاً شديداً محكما بحيث يتعطل سير الدم ويحسن أيضاً أن يعمل رباط آخر احتياطى فى مكان أعلى من مكان الرباط الأول . ويلى ذلك العمل على إخراج السم من الدم بأن يشرط مكان الجرح لتسيل منه أكبر كمية ممكنة من الدم. فإذا

لم يتيسر إجراء التشريط فليعمد المرء إلى إمتصاص الدم بالفم بعد تيقنه من خلو تجويف الفم من الجروح أو الخدوش. ويجب أن يوضع بعد ئذ على الجرح قليل من ماء الكلور أو محلول برمنجانات البوتاسيوم المركز للقضاء على عناصر السم . وفى حالة تسرب السم إلى أجزاء الجسم الداخلية تجب المبادرة إلى إعطائه المصل الخاص ويحسن أن يتناول المصاب شراباً مدفئاً كالشاى أو كونياك . وأخيراً ينبغى إراحة المصاب ولفه بالأغطية لتدفئته.

ولقد عرف الإنسان فيما عرف أثر السم وفتكه فاتخذ منه سلاحا خفياً دنيئاً للخلاص من أعدائه والقضاء عليهم .. فهو عدة الجبان الخائر واللئيم الماكر الذى لا يجرؤ على مواجهة غريمه وجهاً لوجه وسلاحاً بسلاح . فكم من جرائم اقترفت وعروش تقوضت وتيجان طوحت وأمراء وعظماء قضوا وكان السم هو السلاح . .

وعرف الإنسان السموم أول ما عرف فى النباتات . وأول ما أفاد منها فى العلاج ثم كشف عن ناحية الشر فيها فاستخدمها فى القتل والانتقام... وفى التاريخ القديم قصص وأساطير يفهم منها أن السم عرف فى المعابد واستعمل فى إزهاق الأرواح فكان يوضع فى الشراب و يدس فى الطعام وتطلى به أثواب العرائس فيتلقفهن

الموت بين طياتها . . وانتشر استعمال السم فى الشرق ومنه انتقل إلى الغرب فتسرب فيه إلى القصور والخدور ومن أغرب ما يروى فى ذلك أن «فردريك الثانى» كان يجمع فى بلاطه الفتيات الحسان والغيد الفاتنات فيعودهن تعاطى السم بالتدريج حتى تتسمم به أجسامهن الجميلة فلا يؤثر فيها شره فاذا تنكر العاهل العظيم لأحد أمرائه أو حقد على أحد أصدقائه أوحى إلى واحدة من فتياته الفاتكات بالتودد إليه وإيقاعه فى شرائك حبها وأغرائه بالزواج منها فما يكاد المسكين ينعم بحرارة جسدها حتى يلقى منيته فى أحضانها . .

ولا أفهم سر هذه الميتة العجيبة ولا أجد تعليلا لهذا الضرب من التسمم .

على أن الإنسان قد افتن فى استعمال السم وتفتق ذهنه الجبار عن طرق غريبة لإخفائه فاستخدم فى ذلك الدبابيس والإبر المجوفة والجوارب والروائح العطرية وغيرها . كما مزجه بالسكر والنبيذ فاستطاع بذلك إزالة ما فى مذاقه من مرارة . .

وأفل القمر فأقفل رفاعة باب السمر إلى الليلة التالية .

مأساة فى قصر

ولما أشرق القمر فى الليلة الرابعة اتخذ رفاعة مكانه من القوم ايصل ما انقطع من حديثه وقال :

حافظ الشيخ عمران على زيارتنا أنا وصديقى الدكتور موسى حتى أصبحنا نستوحش لغيبته ونسعى للقائه . وكان صاحبى لا يفتأ يمده من حين لآخر ببعض المال كما كان هو لا يألو جهداً فى إهدائه من آن لآن بعض ما يهوى من أنواع الزواحف النادرة وأهداه فيما أهداه مرة ناشراً صغيرا .

سر صديقى بهذا الناشر وسماه « بوطو »

فوجىء صديقى بفقد الشيخ عمران كما فوجىء بفقد عزيز آخر إذ انسل ثعبانه الصغير « بوطو » من مكمنه وضاع كل بحث عنه سدى .. وهكذا فقد المدية ومهديها . .

تسلل « بوطو » الصغير من سور المدرسة إلى حديقة مجاورة وراح يدب فى جنباتها و يسعى بين أشجارها . وكانت هذه المحلة مثابة لأنواع شتى من الحيوان والطير والحشرات نفضت

عنها طلائع الربيع غبار الخمول فنشطت بعد جمود الشتاء وهبت تستقبل الفصل الجديد . فإذا ما لاح الفجر وبدا نوره الرطيب رددت الأفنان تغريد الأطيار وملأ البشر والبهجة أرجاء الحديقة وإذا سجى الليل وانتشر الظلام وهدأت الأنفاس وسادت الوحشة والسكون تجاوب نقيق الضفادع ونعيق البوم فكانت نذراً ترتعد لها أفراخ الطير فى اعشاشها وصغار الحيوان والزواحف فى إجحارها لا تدرى اتدهمها العوادى بياتا وهى نائمة أم تنتظرها إلى الصباح وهي ساربة . .

واحس «بوطو» رعدة تتمشى فى جسـده فانحاز إلى جانب مستور وجعل يرقب بعين حائرة مايجرى حوله فراعه انقضاض البوم كالصاعقة على تلك الصغار المسكينة تهدم أوكارها وتمزق أحشاءها ورأى امامه الأفاعى زاحفة كالسيل تطـارد فرائسها فى جوف الليـل وفلول الجرذان تسابق الريح فى جريها تتلمس الملجأ من عدوها فأيقن «بوطو» المسكين بالشر الذى يتهدده والموت الذى يتوعده فاعتصم بقطعة من الحجر وجد تحتها جحراً صغيراً كمن فيه حتى تهدأ العاصفة . وطال كمونه ولم يكن قد طعم منذ ليال وألح عليه الجوع فدفعه إلى المخاطرة فخرج يتلمس ما يسد به الرمق

وهو حذر جد الحذر ومرت بجانبه « سحلية » مسرعة روعته لأول وهلة إذ ظنها عدواً فاتكا وجعل يتتبعها بعينيه وما هى إلا طرفة العين وانتباهتها حتى بصر بالسحلية فى فم ثعبان غيره يبتلعها وبعد قليل أبصر ضفدعا كبيراً فتقدم نحوه وحملق فيه فجمد الضفدع فى مكانه فانقض عليه وعضه بنابه عضة تركته صريعاً وحاول ابتلاعه ولكن أنى لفمة الدقيق أن يتسع لذلك الضفدع الكبير فارتد عنه يائساً محزونا وسار يفتش عن فريسة أخرى تلائمه فاهتدى أخيراً إلى غدير صغير ملىء بصغار الضفادع وقد وشت حواشيه أعشاب تؤى كثيراً من السحالى فاتخذ من هذا الغدير مستقراً ومقاما وطاب له العيش فيه فظل عدة أشهر لا يفارقه .

قوى «بوطو» فى هذا الغدير واشتد ومرن على الطراد والصيد وهاجه الطمع إلى البحث عن كنز آخر أغنى وأوفر فخرج يتهادى وقد اشرع عنقه زهواً وانتفخت أوداجه تيهاً وامتلأ رأسه غروراً ولم يجرح كبرياءه إلا أن رأى جماعة من الصقور تحوم فى الجو ثم تهوى فجأة على ثعبان أقوى منه عضلاً وأشد بأساً فتركته صريعا ومزقته إرباً وأسرع جهده فى الفرار إلى منجى لا تدركه فيه عين الصقر ولكن الخطر فى هذه المرة كان يتهدده من فوق رأسه

ومن تحته فلم يكد يندس سواد جسمه فى مخبئه حتى أدركه «ابن عرس» فتشبث بذنبه وجعلا يتجا ذبانه فآب ابن عرس بجزء من الذنب ونجا الناشر . . واعتكف فى ملجئه حينا يعانى آلام مصابه حتى اندمل جرحه وغادر الجحر . . وما كان أشد عجبه حين خرج إلى الخلاء فإذا هو لايكاد يرى شيئا مما حوله فخيل اليه أن طول ثوائه فى الجحر قد أعماه ، ولم يكن عمى ماأصابه ولكنها غشاوة عارضة من كدورة سائل عكر ينضحه جسمه تحت قشرة جلدية شفافة هى (ثوبه) أو سلخه الذى يبدله من حين إلى حين و يفرز هذا السائل عادة إذا آن أن ينسلخ الثعبان من ثوبه لتسهل به عملية الانسلاخ وفى وسط الغشوة التى أحاطت به طفق يستخدم لسانه يتحسس به الطريق حتى اصطدم بجذع نخلة فجعل يحتك بالجذع إلى أن تمزق الغشاء عن شفتيه ووضح له سبيل التخلص منه فاستمر يعالجه حتى سلخه عنه وتركه مقلوبا.

وكان قد انهكه هذا المجهود فاستكن بضعة أيام استجم فيها وارتد بصيرا وتفتحت شهيته وعاوده النشاط للسعى فى طلب القوت من جديد و بقى يغدو ويروح يأتيه رزقه رغدا وقد غفلت عنه الأحداث ونامت عنه عيون الأعداء ووجد فى هذه الجنة

أمناً ودعة وجريا على الطبيعة الكامنة فى جنسه لم يحاول الانتقال عن هذه البقعة الهادئة .

ولكن الليالى مهما سالمت لابد وأن توقد نار الحرب فبعد سنوات خمس مرت كحلم الحالم فوجىء « بوطو» فى إحدى الليالى بجلبة صارخة وأصوات مزعجة فقد غزا الحديقة جيش من الخنازير المسلحة بخراطيم كالمعاول وأنياب كالمناجل وجعلت تعيث فيها تقلب أرضها كأنها محراث الفلاح فأخرجت دفائنها وفزعت أوامنها وأثارت كوامنها وما ظفرت بزاحف إلا التهمته ولا حيوان إلا التقمته فوقع الاضطراب فى صفوف تلك الحيوانات الصغيرة الضعيفة أمام قوة هذا العدو الجبار فهرعت الضفادع والجرذان والسحالى والأفاعى تتلمس النجاة وقد سدت عليها المسالك . فلما استيأست وقفت بعض الطوائف تدفع عن نفسها وكانت النواشر بالطبع أفتكها سلاحا وأحدّها نابا فكرت كرة المستميت وراحت تعمل فى الخنازير أنيابها وتنفث فيها سمها ولكنها كانت كرة خاسرة فماذا عسى أن تفعل النيوب أو تؤثر السموم فى تلك الدروع المنيعة من شحم الخنزير . تثلَّم السلاح ونفذت الذخيرة وجال العدو الغاشم جولة وحشية قاسية أوسع فيها الأفاعى تقتيلا وتمزيقا

« وبوطو » المسكين يشهد مصارع بنى جنسه على هـذا النحو الشنيع فجمد فى مكانه ينتظر مصرعه لولا معجزة أغفلت عيون الغزاة عنه ولم يكد الصبح يتنفس والخنازير تترحل حتى فارق « بوطو » جنته التى انقلبت جحيما وانفلت إلى القرية كالسهم المارق وهو لا يؤمن بالنجاة ولكن انتظار المصرع المشكوك فيه بين جدران البيوت خير من الموت المحقق فى ظلال الحديقة .

ودخل القرية على حين غرة من أهلها فألفى أحد الأراقم (١) البيتية النامية وبين فيه ناشر قد غيب أكثر من ثلثيه فى جوف الأرقم فعاوده القلق وعلم أن حظه العاثر قد فرّ به من قضاء إلى قضاء وبدا له أن يدهم الارقم وهو مشغول بفريسته فيكون قد أصاب غرضين بسهم الانتقام لزميله والتخلص من عدوه وأقبل على العـدو الجديد فى شىء من الحذر يسدد إليه أنيابه فتصيبه تارة وتطيش أخرى ولكن لم تجده تلك الحيلة نفعاً ولم يحدث السم القليل فى جسم العدو أثراً فأيقن أنه لن يستشعر فى جوار هذه الأراقم راحة ولا أمنا وآثر أن يفر إلى حقول القطن القريبة من القرية ولما اطمأن فيها إلى أحد الوكور تحت ظلال شجيراتها

(١) Coluber ravergiera nummifer

النامية مضى يرقب فى سكون ما يجرى حوله فبصر بحشرة (المنتس)[١] الخضراء وهى تقضم بفمها إحدى ديدان القطن ورأى (منتس) أخرى وقد وقفت على أرجلها الخلفية ساكنة لا تتحرك ورفعت رجليها الأماميتين فوق رأسها كأنها تتعبد وتضرع إلى الله ولعل هذا ما حدا بالعامة إلى تسميتها (فرس النبى) ولم يطل وقوف هذه الحشرة طويلا على هذه الحال فقد هاجمتها (سحلية) وظلت تحاورها إلى أن داهمتها أخيراً والتهمتها

ولكن السحلية لاقت حتفها عند ما فاجأها (أبو السيور) الثعبان العربيد وخنقها وراح يبتلعها فى بطء فخرج اليه (بوطو) وعضه فلفظ (أبو السيور) فريسته وراح يحاور الناشر فى سرعة ويغافله ثم يهوى عليه عضا إلى أن أثخنه بالجراح ففر من أمام عدوه وهكذا ظل المسكين يستشفى من داء بداء ويخرج من بلاء إلى بلاء فقد خرج فى الليلة التالية يفتش عن فريسة تدفع عنه غائلة الجوع فلاح له على بعد شبح ظنه فى البداية فأراً ولم يتوجس منه شراً فتحفز للقضاء عليه وما أعجل ما تبين أن عينه قد كذبته إذ وجد إلى جانب الفريسة الموهومة ثعبانا قد فرسته فحدثته

---

(١) Nantis religiosa

نفسه بالثأر لصاحبه واستجمع شجاعته وهجم عليها فتقبضت فإذا هى كرة من الشوك لايجد إلى داخلها منفـذاً وآلمه وخز الشوك فتراجع قليلا ليستعد لهجمة أخرى وانفرطت الكرة الشائكة وعادت فى هدوء إلى فريستها الأولى وأدرك « بوطو » أنه « القنفذ » العدو العنيد فجعل يخامره لعله يصادف منـه مقتلا وأحس القنفذ الشر من ضيفه فتأهب لمقابلة الشر بالشر وليعرف صاحبه أن لحمه عليه مر لولا أن قطع حبل المعركة مرور بعض السابلة فلما سمع الخصمان وقع أقدامهم توارى القنفذ فى أعشاب الشاطىء وفر « بوطو » إلى نخلة باسقة كانت على كثب فتسلقها واتخذ من أليافها وقنواتها وكراً ومن أفراخ اليمام الذى أقام عليها أعشاشه غذاء وظل كذلك هادئاً هانئا حتى نضج البلح واعتلى النخلة بلاح فبدأ يضرب القنوان بعصاه ليسقط الرطب فانكمش «بوطو» بين العراجين وأتم الرجل عمله وأدلاه والثعبان كامن فى ثناياه وكان من المنتظرين تحت النخلة فتاة ناضجة أضفت عليها نعمة العيش جمالا وجلالا هى ابنة صـاحب المزرعة ومالك النخيل أعجبها منظر التمر فى عراجينه فمـدت يدها إلى باحة منه بل إلى القضاء العاجل المستور فيه فأحست وخزة ظنتها من إحدى إبر

النخل ولم تحسبها من ناب الصل وأحست أن الدنيا قد اظلمت فى عينيها فتمتمت بعض كلمات خرت بعدها صريعة ولم تتسع الفرصة لإسعافها من سم لا تجدى فيه رقية راق ولا حيلة آس فحملوها إلى البيت تشيعها الحسرات وفى هذه الغفله هرب المارد الأثيم فلما عادوا يفتشون عنه لم يجدوا إلا آثار زحفه إلى الغاب الملتف على شاطىء الترعة وقد غيب نفسه فيه فلم يهتد أحد اليه .

طاب لبوطو المقام فى هذه الخلوة التى لاتصيبها عين ولاتطؤها قدم وظن أنه فى محلته فريد وحيد ينعم بخيراتها دون شريك حتى كان يوم من أيام الربيع فانبعث فى صباحه من جوانب الغاب ريح كريهة ملأت جوه ووصلت إلى أنف الثعبان فعرف فيها ريح أنثى من نوعه وتنبهت فيه الغريزة فجاوبها بريح مثلها وجعلا يتدانيان على هدى ما يبعثان من الريح حتى تلاقيا وتم التزواج وراح يضرب فى الغاب جذلان فرحا وهو أشد ما يكون نشاطاً وتعاقبت الأيام وانقضى الربيع ومن بعده الصيف وبدأ الخريف ينشر ألويته فأدرك « بوطو » فتور وعافت نفسه الطعام وعف راغماً عن مطاردة القوارض واغتيال الطيور واستكان حتى استخفت به أهون الطيور شأنا فما كانت تخشاه (أم فصية)

الضعيفة وهى تتردد على جسمه طائرة هابطة تنقر (الطعيليات) العالقة بجلده رغم دقة احساس هذا الجلد . عزف بوطو عن كل ذلك ولم تعد به حاجة لغير الدفء فانزوى بين هشيم الغاب وأعواده مستغنياً بما ادخر فى جسمه من دهن عن الطعام والشراب قانعاً بالقليل من أكسجين الهواء فى تنفسه البطىء وعكف على هذه الحال حتى تقلص الشتاء وعادت شمس الربيع ترسل اليه أشعتها الدافئة من ثنايا الغاب توقظه وتنشطه فانبعث حياً يجد فى السعى لتعويض ما فقده أيام الركود .

مضت فترة و بوطو آمن فى غابه حتى آن أوان قطع الغاب و بدأ العمال يعملون فيه الفؤوس ووراءهم قطيع من الغنم يرعى مكان القصب . شعر بوطو بهذه الضجة فقام يتخبط بين العاف النبات وكأنما اشتم كلب الغنم ريح هذا العدو وسمع حفيف جسمه بأوراق الغاب الجافة فوقف فى وجه الغنم يذودها عن مكمن الخطر وهو ينبح و يتلفت من الحـذر ورأى الثعبان سلامته فى النزوح عن مكانه وما كاد يخرج إلى الطريق حتى بصر به الكلب فأراد أن يحول بينه و بين الهرب فواصـل نباحه لينبه الراعى أو العمال اليه وضيق الطريق على الثعبان دون أن

يشتبك معه وهو لا يجهل خطر هذا الاشتباك عليه وضاق الثعبان بمحاورة الكلب فعاجله بعضة قضت عليه قبل أن يلحق به المد وتنبه الراعى متأخراً فلما أقبل ألفى كلبه ميتاً فذهبت نفسه حسرات على صاحبه الوفى الأمين وأراد الانتقام له من عدوه المبين ولكن الثعبان كان قد نجا إلى جحر قريب بدت آثار زحفه عند بابه فوقف رقيباً عليه وبعث بعامل من قاطعى الغاب يستعدى على الثعبان حاوى القرية الشيخ أباالمكارم فجاء مهرولا وبيده عصاً فى طرفها قطعة من نسيج الصوف فطلب إلى أحد العمال أن ينبش الجحر بفأسه وهو قائم يترصد فخرج بوطو هائجا وقد فغر فاه وحدد نابه ليغمده فى أول شبح يقابله فأدنى اليه الحاوى قطعة الصوف فعضها عضة المغيظ واجتذبها الشيخ من فيه جذبة قوية خرجت ببعض انيابه وثنى بالعصا فثبتها فوق عنقه وقبض عليه من موضع العصا قبضة محكمة ثم عاد يلقمه قطعة الصوف وينتزعها حتى فض فاه من جميع النيوب وكان فى القرية شاب من ذوى اليسار قد هوى الزواحف وأعد لها فى حديقة قصره معقلا فسيحاً وفر لها فيه مظاهر بيئتها وكان أبو المكارم يزوده بما تصل اليه يده من مختلف أنواعها فلما ظفر بالناشر

الجديد حمله اليه فأجزل عطاءه وسر ببوطو وضمه إلى مجموعته .

وكان صاحبنا شابا فى ميعة الصبا لم يعد الحلقة الثالثة توفى عنه أبوه وهو لم يزل فى المهد صبياً وخلف له ثروة ضخمة فكفلته أمه وكانت سيدة رقيقة القلب شديدة العطف فغالت فى حدبها عليه ورفقها به ونشأته نشأة مدللة مائعة لا تصلح له خطأ ولا تقوم له عوجا ولا تنهاه عن هفوة ولا تذوده عن جريرة فشب مستهتراً مريض النفس فطير الرأى فاتر العزم وانطبع على غرار أمثاله من أبناء المترفين الذين أتلفهم سقم الوراثة أو ضعف التربية فلم يقبل على طلب علم ولم يحاول أن يقوم بعمل وأحاط به عصبة من أقران السوء وشياطين الإنس الذين يهبطون على كل وارث من أبناء الأثرياء ويعيشون عالة عليه فزينوا له كل منكر وأحسنوا له كل قبيح ومهدوا له سبل الغواية فنهز معهم بدلوهم واندفع فى تيارهم وراح يبذر النضار يمنة ويسرة وفطنت والدته إلى أنه سائر إلى إفلاس محتوم وتلف محقق فشرعت بعد طول التفريط وفوات الفرصة تعظه وتنذره فلم تجد العظات ولم تغن النذر فاضطرت إلى الحجر عليه والحد من إسرافه ولكن الداء كان قد استشرى وتمكنت العلة من نفسه فقبع فى القصر يعيش بشخصيتين

متباينتين . يخرج للناس نهاراً فى مسوح الرهبان ولباس العالمين يخادعهم برعاية أفاعيه تارة و بالعكوف على الصلاة والتسبيح تارة أخرى فأثرت الخديعة فيهم وانطلى الزور عليهم وكان بعض السذج منهم يترددون عليه متيمنين ويفضون إليه بدخائل نفوسهم وأسرار بيوتهم طائعين وكان إذا أسدل الليل عليه حجابه أعلن أنه آوى إلى خلوة التعبد وقد خلا فى الحقيقة إلى شيطانه ثم انتزع ثوب النسك المستعار وأرسل نفسه على سجيتها فعقد مجلس الخمر والمخدرات بعد أن يكون قد نصب فخاخه ومد شراكه ليتصيد فريسة يقضى بقية الليل فى أحضانها حتى إذا لاحت تباشير الفجر سرح الذبيحة قبل أن يستيقظ الحى فلا يفضح له سر ولا يهتك عنه ستر .

وكثيراً ما كان يتردد على « غريب بك » الشيخ دردير فقيه القرية ومأذونها ليتلو فى القصر ما تيسر من آى الذكر الحكيم ويتدارس مع صاحبه بعض أحكام الدين بقدر ما تسمح له بسائط علمه وكان «غريب بك» حفيا به يهش للقائه ويبالغ فى إكرامه ويظهر الارتياح لمجلسه والاغتباط بحديثه والإعجاب بقراءته لأنه يرى فيه خير مذياع ينشر على الملأ فضائله وما فى

الفقيه يفاخر بصلته بغريب بك ويتمدح بنسكه وورعه وتواضعه وكرمه حتى أبرزه للناس ولياً من الصالحين وقطباً من الواصلين وكان لا بد أن تظفر بالنصيب الأوفر من هذه الإذاعة «عالية» امرأة درديرِ وهى بدوية نصف لم تذهب السنون بروعة جمالها وحسنها المطبوع ولم يذبل نضارة عودها حمل ولا وضع ولم يلوح صفاء بشرتها نصب ولا كد فقد كانت مهنة زوجها توفر لها العيش الهنىء وكانت عالية كريمة مرحة هوت إليها أفئدة من نساء الحى وفتيانه فلم تقفر دارها من واحدة تحمل إليها أكلة شهية أو تحمل عنها عبئاً من خدمة الدار ووجدت فى ذلك مسرة وسلوى فلم تشك فى حياتها هما وهبطت عليها فى السنوات الأخيرة خيرات القصر التى كان يأتى بها زوجها دون أن تنقل إليها قدما أو تبسط لها كفا فزرع ذلك فى قلبها للقصر حباً ووداً فوق ما وطده فيه حديث الشيخ من ثقة وتقدير .

وحدث فى أصيل أحد الأيام أن دعى الشيخ لحفلة عرس يتولى صيغة العقد فيها وبحث عن بعض دفاتره فلم يجدها فحمل على عالية التى لاذنب لها فى فقدها ونشأت بينهما جفوة لم تتعودها وخرج الشيخ مغضبا فشق الأمر عليها ولم تجد أمامها خيراً من

« غريب بك » تشكو إليه قسوة زوجها فولت وجهها شطر قصره فما أن استقرت عليها عينه حتى وقعت فى قلبه وحسبها فريسة ريضة ساقها الشيطان إليه وشرعت تقص عليه قصتها وهو يقلب طرفه فى خبث ودهاء فى جمالها فلما فرغت من الشكوى راح يهدئ من حنقها على الشيخ بحلو الكلام ويمنيها بما يضمن لها عدم عودة زوجها إلى إغضابها وكان لا يفوته فى حديثه اطراء خلقها والثناء على زوجها . ثم أمر بأن تعد لها غرفة توفر لها فيها أسباب الراحة حتى يرسل فى طلب الزوج . أوت عالية إلى غرفة فاخرة الأثاث غنية الرياش لم تر أو تسمع بمثلها من قبل فشغلت بهذا المظهر الباهر حينا تجيل البصر فى نواحى الغرفة تارة وتمسح بيدها على فرشها تارة أخرى وهى تشعر كأنها فى حلم لذيذ وبدا لها أن تضطجع هنيهة على السرير المقام فيها بين حشايا الحرير وملاحف الديباج وراحت تتمرغ فيه وهى آمنة . وذهلت عن نفسها فأخذها النوم ولم تنتبه إلا بعد هجعة من الليل على يد غريبة تمسح على وجهها وتمر على شعرها ففتحت عينيها على شبح ارتاعت له ثم تبينته فإذا هو غريب بك يبتسم لها ويلقى بعض كلمات الغزل فى أذنها وهم بأن يدنى شفتيه من جبينها فانتفضت

مذعورة مختنقة من هذه المفاجأة الغريبة فلم يكن ليخطر ببالها أن ولى الله الناسك العابد ينقلب فاجراً أثيما أو أن « غريبا » الثرى الوجيه الذى يستطيع أن يمتلك بجاهه وماله أغنى وأجمل ربات الخدور ينحدر إلى مهبط هذه الريفية الفقيرة التى لا تشعر بينها وبين نفسها بشىء من الفتنة أو أن هذا الشريف الكريم ينزل عن شرفه ويتخلى عن كرمه فيهتك حرمة جاره ويمزق عرض ضيفه وبدأت تدفعه وتنهاه فى خوف ورهبة فلم يزده ذلك إلا غروراً وتماديا ، ولما أعيته الملاينة أراد أن يأخذها بشىء من الشدة فلم تجد بداً من أن تقابل شدته بمثلها فصفعته صفعة قاسية ودفعته دفعة قوية وانطلقت من باب الغرفة انطلاق القذيفة ميممة باب القصر فأخطأت الطريق ووقعت فى حظيرة الزواحف وقد خدعت فى زجاجها فحطمته ، وكان الوحش الضارى يركض فى أثرها ولحق بها فى الحظيرة ففزعت الأفاعى لهذه الجلبة الطارئة وكانت أنياب بوطو قد تجددت فأنشبها فى ساق الرجل فسقط السقطة الأبدية وطلب وهو فى حشرجة الموت إلى عالية أن تغفر له جريمته وأن تنجو بنفسها من أفواه الموت الفاغرة فى جنبات الحظيرة ثم أسلم الروح وخرجت عالية بعد أن شهدت مصرع

الفتى وهى تحمد الله الذى وفر عرضها ونجى حياتها وأيقنت أنه لا يغفل لحظة عن الظالمين وإنما يمهلهم إلى حين .

ولما أسفر الصبح ودبت الحياة فى القصر ونزل البستانيون إلى عملهم أنموا أفاعى ساربة فتطيروا وانخلعت قلوبهم وانطلقوا إلى الوكر فهالهم أن رأوا بعض ألواحه قد تحطمت وكل أفاعيه قد تسربت ووجدوا سيدهم ملقى حيث لقى حتفه فشدههم هذا المشهد الرهيب الذى عمى عليهم فلم يفقهوا من أمره شيئاً وانهالت عبرات المعولين وتعالت صيحات النادبين وأخذت منه الصيحة فدار بها القصر ومادت بها الأرض وطارت إلى مكان وحيدها وهى تتعثر وتتكفأ حتى انكفأت على جثته تقلبها وما تملك غير دمع مسفوح وقلب مجروح لا يغنيانها فى رد القضاء فتيلا .

وكان الخدم بعد مصرع سيدهم وتحرر أفاعيه يتوجسون فى كل موطئ قدم حتفا محيقا فاستقدموا الشيخ أبا المكارم يفتش لهم عن تلك الحيات وينقذهم منها فعكف بضعة أيام على تقفيها حتى أتى على كل ما كان لائذاً منها بالحديقة ، أما التى تخطت الأسوار وتفرقت فى الحقول فلم يستطيع لها طلبا .

وأفل القمر فأقفل رفاعة باب السمر إلى الليلة التالية . . .

موكب الرفاعية

ولما أشرق القمر فى الليلة الخامسة اتخذ رفاعة مكانه من القوم ليصل ما انقطع من حديثه وقال :—

خرج الشيخ أبو المكارم وقد امتلأت جعبته بما تصيد من أفاعى القصر ومن بينها « بوطو »

وكان ذلك اليوم يوم مولد السيد الرفاعى وهو يوم مشهود له جلاله وله خطره عند أتباعه يتخذونه عيداً يحفلون له أينما كانوا ويحيون فيه ذكرى إمامهم الأكبر وهو بزعمهم صاحب كرامات قد سخرت له الأفاعى فى حياته ولم ينقطع سلطانه عليها بعد موته فما برحت أسرابها دائبة القصد إلى ضريحه فى سفح جبل المقطم تتمسح به وتطوف حوله وما برح صاحب التصريف فى شئونها تأتمر بأمره وتنتهى بنهيه والحكم الفصل بينها وبين خصومها يسجنها ويعذبها إذا جنت على أحد بغير جريرة ويصب عذابه على من يأخذها بغير جريمة .

وما عرف التاريخ إلا أن سيدى أحمد بن على بن الحسين الرفاعى الذى ينمى الرفاعيون نسبتهم إليه نشأ ومات فى قرية (أم عبيدة) بأرض البطائح بالعراق وقد دفن بها ولم يخرج منها. وكان رحمه الله فقيهاً من أعلام فقهاء الشافعية تخرج عليه عدد وفير من العلماء والمتصوفين وكان زاهداً عابداً رضى الأخلاق مشهوداً له بالحلم والعطف شمل عطفه الانسان والحيوان. وقد بلغ من حلمه أنه لم يجز على سيئة بسيئة وكان حساده يرسلون إليه رسائل حافلة بأقذع أنواع السباب والانتقاص ويرمونه فيها بالإلحاد والزندقة والابتداع والدجل فإذا فض رسالة أحدهم وقرأها ابتسم وقال « صدق فيما قال جزاه الله عنى خيراً » . حتى إذا يئسوا من اغضابه سعوا إليه منيبين تائبين . . . وقد لقى مرة صبية يتشاجرون فأصلح بينهم وسأل أحدهم ابن من أنت . فقال الصبي وما فضولك هذا . فضحك وقال جزيت خيراً فقد أدبتنى يا بنى .

وكان من حدبه على الناس أنه يخرج فيحتطب ويعود حاملا الحطب فوق رأسه فيوزعه بين الأرامل والمساكين والمرضى والعميان والشيوخ . ومن عطفه على الحيوان أن هرة

نامت على طرف قميصه وأذنت الصلاة فلم يشأ أن يزعجها وقص طرف الثوب ثم عاد بعد أن تركته الهرة نخاطه . . ووجد مرة كلباً أجرب يطارده الصبية حتى أخرجوه إلى مكان بعيد نخرج وراءه وضرب عليه مظلة وكان يحمل إليه فى كل يوم الطعام والشراب ويحت عنه الجرب ويطليه بالقار حتى برىء ونبت شعره فحمل إليه ماء ساخناً فغسله وأعاده إلى القرية . وكذلك أقام الرفاعى من ثمانمائة عام دليلا على أثر الدين فى تهذيب النفوس و إصلاحها وطبعها على الخير واشعارها الشفقة على الإنسان والرفق بالحيوان فليس الرفق بالحيوان — كما يدعى المدعون — سنة أشرقت شمسها من الغرب ولم يصل شعاعها إلى الشرق إلا فى القرن العشرين .

ولعل الذى لبس على الرفاعيين فى مصر أمرهم وجود الشيخ على ابن شباك الذى شهر بالرفاعى فيها وهو من أتباع سيدى أحمد فحسبوه هو وهم على هذا الزعم يؤمون ضريحه ويحتفلون بذكرى مولده فيخرجون بطبولهم الدقاقة و بنودهم الخفاقة و يشاركهم فى مهرجانهم العظيم عدد غير قليل من أبناء الطوائف الصوفية وأصحاب الطرائق الأخرى فإذا رأيتهم وقد ملأت

الأرض جموعهم الصاخبة فى أزيائهم المتضاربة ونجمت من رؤوسهم عمائم البيومية الصفراء والأحمدية الحمراء والنقشبندية الخضراء والرفاعية السوداء حسبتهم نبتاً مختلفاً ألوانه متباينة أزهاره ولا تكاد تستقيم فى الأسماع أناشيدهم الدينية وأغانيهم الصوفية بين جلبة التهليل والتكبير وأنغام الزمر والصفير وبين قرع الطبول ونقر الدفوف وقد تعالت فى الجو إلى جانب هذه الأصوات الداوية سحب من مثار النقع ودخان البخور وكأن الشرر المتطاير من المشاعل ومن نيران المواقد نجوم متساقطة أو شهب متهاوية وإذا ما انتهت هذه الجموع إلى ساحة الحفل انتظمت حلقات يتوسطها الرفاعيون يعرضون مغامراتهم فيتطوق بعضهم أطواقاً من الحيات الضخمة يداعبونها ويروضونها على أنواع من الرقص على نغمات المزمار أو تقاسيم الناى أو يخطون لها فى الأرض دوائر يحبسونها فيها فتزحف فى محيطها كيف شاءت دون أن تجرؤ على تخطى خطوطها وقد يعملون أسنانهم فى جسومها عضاً ونهشاً وما تحاول أن تدفع عن نفسها أذى ولا شراً ويعمد غيرهم إلى المناجل المصهورة يلعقونها وإلى الجمار الملتهبة يأكلونها وإلى قطع الزجاج يمضغونها وإلى المسامير يبتلعونها

بل لقد يدخل أحدهم السيف الطويل فى فيه ويغيبه فى جوفه وما يمسهم من كل ذلك سوء أو يصيبهم أذى .

وفى بعض الحلقات نرى حواة قد وضعوا أوعية ملأى بالماء واطلقوا حولها الثعابين فتهرع إليها حتى إذا وردت الماء واستقت تقدم الحواة فشربوا منه ثم راحوا يسقون النظارة زاعمين أن كل من شرب منه شربة كانت أمانا له من كل زاحفة .

وفى حلقات أخرى تراهم يطلقون أسراباً من تلك الحيات وينادونها فتأتى إليهم طائعة أو يأمرونها بالوقوف وهى زاحفة وهم يرددون صيغاً غريبة من العزائم . فتجمد فى مكانها أو يلقون حبالهم وعصيهم فيسحروا أعين الناس فيخالوها حيات تسعى وهم فى كل ذلك ينادون (يا رفاعى مددك) .

ويزعم هؤلاء الرفاعيون أن كل ما يأتونه من تلك العجائب مصدره البركة المستمدة من شيخهم الأكبر . ولو صح ذلك لما ذهب بين آن وآن عدد منهم ضحايا لدغ الأفاعى . ولكان لهم من تلك البركة مناعة تقيهم وهم أقرب الناس من شيخهم . وأغلب الظن أنهم دربوا على المهارة وخفة الحركة أو أوتوا شيئاً من قوة

الايحاء وإنما ظهروا بها للناس فى مظهر الدين لأن ذلك اروج لبضاعتهم وأزكى لهم عند العامة والبسطاء .

ولقد تركنا الشيخ أبا المكارم فى طريقه إلى المهرجان وفى جعبته « بوطو » وكان من سوء حظه أنه بعد أن وصل إلى الساحة الكبرى وكانت قريبة من النيل وتوسط إحدى الحلقات يعرض ألاعيبه اخرج « بوطو » من قرابه وعرضه في بعض المناظر ثم لفه حول عنقه وعضه عضة ألم غضب « بوطو » فجزاه عليها عضة مثلها فخر الشيخ المسكين مغشياً عليه غشية لم يفق منها ولم يدفع عنه الموت رقى الراقين ولا تعاويذ المعوذين ووجم الناس لهذه المفاجأة المؤلمة وانسل « بوطو » من تحت أرجلهم فلما ثابوا إلى نفوسهم راحوا يبحثون عن ذلك الثعبان اللئيم وجروا فى أثره ولكنهم لم يدركوه إلا وقد شارف النهر فقفز فيه فجعلوا يرجمونه بالحصى فغاص فى الماء حتى وصل إلى القاع .

نزل « بوطو » إلى قاع النيل فإذا هو فى بيئة لا تشاكلها بيئة ودولة تتضاءل أمامها دولات ووجد من حيوان الماء وأسماكه صنوفاً لم يتعهدها ضروباً وألفى نفسه بين أحيائها غريباً فدب فى نفسه دبيب من الفزع وبادلته الأسماك جزعاً بجزع فمن شأنها

أن تفزع لرؤية كل غريب وانكمش « بوطو » يفكر فيما وقع فيه فبصر بحوت أملس يقال له « الرعاد » فى لونه صفرة قاتمة يشوبها بياض وتوشيها بقع يغلب عليها السواد إذا دنت منه الأسماك ضربها بذنبه فلفظت كل ما فى جوفها فيسرع إليه فيلتهمه ورأى أحرصها على البعد عنه (البلطيات) لأنها تحفظ فقسها فى تجاويف فمها فتبتعد خشية أن يصيبها ما يصيب غيرها ويكون متلفة لصغارها . ورأى « بوطو » فيما رأى الجريس وهو نوع من الأسماك يشبه الثعابين بعض الشبه حتى اشتهر بين الناس باسم ثعبان السمك وظلموه فاعتقـــدوا بأن فى رأسه غدة سامة كحية الأرض فعمدوا إلى قطع رأسه قبل أكله وهو من كل ذلك براء . . وظن « بوطو » أنه من فصيلته لولا أن رأى فيه صبراً على المكث تحت الماء بفضل خياشيمه التى يتنفس منها .

وراحت « القراميط » من حوله بلونها الرمادى الداكن تلعب وترقص ويناجى الذكر منها أنثاه فكأنها فى عيد من الأعياد . ثم يشتبكان فى تزاوج قد يطول ، وبعـد وقت غير

قصير تضع الأناث بيضها المخصب فى الطين خوفاً عليه من أن يلتهمه عدو لها من الأسماك الأخرى . كما راحت ذكور سمك (البنى) . وأناثه تلقى حيواناتها المنوية وبويضاتها فى الماء وتتركها لمشيئة القدر .

وضاق « بوطو » بهذه البيئة وأحس الضيق فى أنفاسه لنفد الهواء من رئته فطفا على سطح الماء فرأى سمك « البطحيش » الدقيق الذى يلد صغاره يلتهم يرقات الناموس إلتهاماً . ولمح السماك » الأبيض يجىء فوق سطح الماء فى تدلل وتراقص معجباً بالألوان البديعة التى وشت الطبيعة بها ريشه الجميل فكأنما رسمت عليه زهور الفول . ويهوى على سطح الماء فيلتقط سمك البطحيش الصغير . . . وقد اتخذ السماك عشه من الجروف الموجودة على الشاطىء فيضع فيها بيضه . ولم يحزنه أن يداهم عشه ثعبان « الفارغه[1] » وهو الثعبان الوحيد فى مصر آكل البيض . ولون هذا الثعبان الفريد زيتونى أو رمادى وعليه صفوف من بقع غبراء معتمة وقد تتلاشى كل هذه البقع .

(١) Dasypeltis scaber

أما البطن فأصفر وبه نقط غبراء وهذا الثعبان وديع لا يعض لأن أسنانه غير أثرية وغير مدببة وهو عظيم الشبه بالغريبة السامة فى لونها وفى الصوت الذى تحدثه الحراشيف عند احتكاكها ولذلك يصعب على الكثير التمييز بينهما .

وسبح « بوطو » إلى الضفة الأخرى من النهر فوقع فى صحراء مجدبة سادها السكون والوحشة فلا يسمع فيها إلا همس النسيم وكان القمر يرسل ضياءه على رقعة الرمال التى سردتها الرياح فبدت كلجة الماء . وخرجت القرع والمقرنات من الرمال فأبرقت بانعكاس ضوء القمر على جلودها ، ودبت الحياة فى ذلك القفر نوات ، وجدت كل دابة فى طلب رزقها فتلاقى الغرماء وتقابل الأعداء . واشتبكت ورلة ومقرنة نعضت عليها بأسنانها وجعلت تضرب بها الأرض وراحت تدفع عن نفسها فالتفت حول عنقها وجدت فى خنقها ثم انجابت المعركة عن الخصمين معاً صريعين . وانفرد أرقم[1] أحمر بحية غريبة فأوسعته وخزاً بأنيابها وجدّ هو فى مداورتها حتى تمكن من القبض على عنقها . وما زال بها

---

(١) Spalerophis diadema

حتى قضت نحبها فلما سكنت حركتها التهمها . . . وظفر أبو منتن بثعبان فقتله وهمّ بأكله فرأى (فنكا[1]) يدلف إليه فاستلقى على الأرض وتماوت و بعث بريح شديدة النتن انتشرت فى الهواء فلوثته وتأذى به الفنك فانقلب على عقبيه وقد خاب أمله . . .

برم « بوطو » بهذه البيئة الجديدة وأوجس فى نفسه خيفة فأجمع أمره على أن يعود أدراجه ورأى على أثره سرباً من الأراقم تطارده فجدّ فى الهرب ولم ينجه منها إلا التجاؤه إلى الماء و بينما هو سابح فى النيل إذ صادف فلكاً مشحوناً فتعلق به وكمن بين سلعه وصادف فى جوفه بعض الجرذان فقنع بها . . .
وأفل القمر فأقفل رفاعة باب السمر إلى الليلة الثانية . . .

(١) ثعلب الصحراء

عشش الترجمان

ولما أشرق القمر فى الليلة السادسة اتخذ رفاعة مكانه من القوم ليصل ما انقطع من حديثه وقال : —

ألقى الفلك المشحون مراسيه على شط النيل فى (بولاق) على كثب من « عشش الترجمان » وشرع النوتية يفرغون حمولة فلكهم إلى أن جاء دور (بلاليص) العسل فتراجع الحمالون وقد امتقعت وجوههم واضطربت قلوبهم وجعل كل منهم يجرى من مكان إلى مكان منقبا عن عصا صائحاً «الثعبان . الثعبان» ولكن الثعبان كان أحرص على حياته من أن ينتظر الموت ساكناً فتركهم فى مرجهم وانسل إلى البر ونزل فى أرض قوم لو اطلعت عليهم لوليت منهم فراراً ولملئت منهم رعبا . تطلع الشمس فيهم على رؤوس مشعثة وعيون غائرة صفرها الجوع ووجوه شاحبة وأجسام مهزولة هدها السقم ونفوس خائرة أنهكها التخدير وعقول

فاترة صرفها الجهل والضعف عن السعى للعيش إلا من طرق الإجرام وسلكوا فى تدبير إجرامهم كل سبيل وفتقوا فيه كل حيلة حتى استنصروا القردة وعلموها « النشل » وروضوا الحيات ودربوا الجداء والكلاب والجرذان على ألاعيب يبتزون بها أموال الناس يصرفون نهارهم فى التسول والسلب فإذا أرخى الليل ستوره ونشر الويته صفقت هذه الأفاعى البشرية تعيث فى الأرض فسادا فتراهم عصابات يتناحرون على اقتسام الغنائم ويتبارون فى اعداد قراطيس المخدر للاتجار أو يتشاحنون على اقتناص فرائس الأعراض وقد يجرهم ما يشجر بينهم إلى إعمال الخناجر والهراوات فتبتر أعضاء وتراق دماء وقد لا تقع عليهم عيون الولاة ولا أيدى القضاء .

وإذا ولجت أوكارهم أو عششهم فوجئت بما يؤذى معطس من نتن الريح ويضنى الرئات من فسد الهواء ويقذى العيون من قذورها ناهيك بما يقع عليه بصرك من أجسام عجاف كأعشب الصحراء ملقاة على فرش من الليف والبردى أو على حشيا من الهشيم تلفها أردية بالية لا يبين لونها مما علق بها من أوساخ وأقذار

ومن عجيب أمر هذه الدور ان أرخص سلعها الأرواح والأعراض وأغلى نزلائها الأوبئة والأمراض .

ولو اطلعت على ضمائر ساكنيها وكشفوا لك عن دخيلة أنفسهم لراعك ما انطوت عليه جوانحهم من ثورة على القدر الذى شاء لهم حياة البهم وسخط على المجتمع الذى لفظهم فأشقاهم ليحنو على الأثرياء الناعمين بثرواتهم لاهين عن شقاوة وبؤس الفقراء ممن حولهم يضنون عليهم بما وهبهم الله من فضل فينتشلوهم من حمأة الجهل والفقر التى ترددوا فيها .. ولو فعلوا لأنقذوا هؤلاء التعساء الذين قضت عليهم تنشئتهم وتربيتهم وجهلهم بأن يكونوا أعداء الفضيلة ولخلصوا المجتمع من شرهم وأذاهم وانتقامهم من الجماعة التى تجاهلتهم .

ولئن كان هذا الحى أو هذه المباءة وصمة فى جبين القاهرة فان فى بعض بلاد الغرب التى سبقتنا كما يزعمون بأشواط فى طريق المدنية مباءات شر منها فى الواقع . وهناك « النورد » فى برلين و « مونمارتر » فى باريس

ونعود الآن إلى « بوطو » العربيد فقد ظل يزحف تحت جدران الأكواخ يفكر فى الطعام ويحتال للمأوى حتى وقع على

كوخ قراد ففزعت لمرآه القرود فى مرابطها وتعالت صيحاتها وُقبل أهل البيت فرأوا ثعبانا ضخما لا عهد لهم بمثله ففزعوا إلى عميد حواتهم الشيخ جاد وهو رجل عات جبار على الرغم من ضآلة جسمه وقلة وزنه يشبه فى كثير الشيخ (عمران) ففيه عيناه السوداوان البراقتان وفيه ظاهرة هدوئه وسكونه غير أنه لا يماثله فى طيبة قلبه وتنوع نفسه . . فعجل الشيخ جاد إلى « بوطو » وراح يتعرف آثاره حتى أدركه وهو يحاول الهرب فوضع عصاه الصغيرة على عنقه وحمله فى قرابة ليضمه إلى مجموعته من الزواحف التى غصت بها داره والتى كانت تدر عليه رزقا لا يناله أمثاله إذ أتاحت للشيخ جاد سعة حياته الاتصال بدور العلم وهواة البحث فى شئون الزواحف فعرف مغالاتهم بالنادر منها فكان يحبس عنهم بعض الأنواع غير المعروفة ثم يبيعهم إياها فرادى وفى فينات متباعدة ليتقاضى ثمنها دنانير عديدة . فأيسر الشيخ من هذه الطريق وأثرى وأصبحت له بين (العشش) بيوت عدة واتسع سلطانه فى الحى لما عرف من اتصاله بالعظماء وذوى النفوذ وأصبح مرهوب الجانب والبأس فكان يرهق مستأجرى دوره إذا تباطئوا فى تأدية الأجور حتى ولو أدى بهم الأمر إلى السرقة .

وتوافرت للرجل زينة المال ولكن حرمه الله زينة البنين فلم تنجب له زوجاته العديدات ولدا فكان يستبدل بين عام وعام زوجا بزوج دون أن يمن الله عليه بولد أو يبقى له من بناته على غير أبنته « عبلة » وكثر استبداله للمؤنثات حتى كانت المرأة التاسعة ولم تكن أسعد حظاً من سالفاتها فوضعت له بنتا. وأيقنت المرأة بأن مصيرها إلى الطلاق والحرمان من ثروة زوجها فأجمعت أمرها على الخلاص من الشيخ قبل أن يتخلص هو منها وكان الشيخ جاد قد جافاها وهجر مضجعها . فوسوس لها شيطانها فى هزيع من الليل فحملت إلى مخدع الشيخ وهو نائم قرابا من قرب الحيات الفتاكة وفتحته فى المخدع وانسلت. فخرجت الحيات منه وتفرقت فى الحجرة وصادفت حية ذراع الشيخ فلدغته . . وكانت وحيدته « عبلة » نائمة فى حجرة مجاورة فنبهتها صيحة أبيها من حلم مروع أفزعها فهرولت إلى مخدعه فأيقنت الرؤيا قد تحققت وكان تأويلها أروع منها إذ رأت أباها يعانى سكرات الموت وقد انعقد لسانه و برق بصره وشلت أعضاؤه وأبصرت بالأفاعى طليقة فى نواحى الحجرة

فبادرت إلى جمعها وحبسها ثم عادت إلى الشيخ المحتضر حتى صعدت روحه إلى بارئها .

وكانت عبلة فتاة عربية المخايل مليحة الوجه هيفاء القامة هفهفة الروح حلوة الحديث صافية الذهن حادة الذكاء ولكن نشأتها بين أبالسة (العشش) أولعتها بالمخاطرة وحفزتها إلى مغامرات أخطر من مساكنة الحيات ومصاحبتها فافتنت فى تهريب المخدرات وبرعت فكانت لها مع رجال الأمن جولات خرجت منها فائزة . .

وبعد موت الشيخ جاد نشطت عبلة إلى القيام بعمل أبيها فطلبت إليها كلية الطب أن تبيعها بعض الثعابين السامة لتجرى على سمها التجاريب فكان فيما باعته إليها « بوطو » الجوال الذى لم يكد يستقر به المقام فى معمل الكلية حتى هرب مرة أخرى واتخذ سبيله بين الحجرات والعنابر فهاج النازلون به واستعان أولو الأمر فيها باخصائى من حدائق الحيوان فاعتقله ونقله إلى الحديقة . وأفل القمر فأقفل رفاعة باب السمر إلى الليلة التالية . . .

يوم الضحايا

ولما أشرق القمر فى الليلة السابعة اتخذ رفاعة مكانه من القوم ليصل ما انقطع من حديثه قال :ـــ

تسلم مكتب الحديقة الثعبان «يوطو» وأخذه حارس «المنطقة الحارة » وهو اسم يطلق على المكان الذى تحفظ فيه الثعابين والسلاحف والتماسيح والورل والحرابى . ومر الحارس بالثعبان على بركة التماسيح وكان ساكنها راقداً على حافة البركة المسورة بقضبان من الحديد يصطلى الشمس وقد فغر فاه كأنه فى انتظار صاحبه « القطقاط » طائر التمساح وصديقه الذى يلازمه دائماً فيهبط بين فكيه و يلتقط من بين أسنانه الهوام والديدان والتمساح هادىء مطمئن حريص على أن لا يطبق فمه الهائل على صديقه الصغير أو يناله بسوء وهو حارسه الوفى حتى إذا رأى عدواً أو أحس خطراً يهدد التمساح صفق بجناحيه منذراً فينساب التمساح إلى الماء هرباً . .

وقديماً عبد المصريون التمساح وكرموه وحفظوه واتخذوا منه إلهاً اشروق الشمس على الرغم مما عرف عن وحشيته وافتراسه للانسان . والتمساح ذو دهاء ومكر شديدين فقد قيل إنه يغشى الأمكنة التى تتردد عليها الفلاحات ليملأن الجرار بما يحتجن إليه من الماء فيعمد التمساح إلى طلى ذنبه بالطين اللزج من قاع النيل ثم يصعد إلى الشاطىء فيتمرغ عليه ثم يعود فيكمن قريباً فإذا ساق سوء الحظ إحدى الفلاحات إلى هذا المكان انزلقت قدمها فيتلقفها التمساح فريسة سائغة

ومن المعروف أن الورلة المائية التى كادت تنقرض من مصر تتغذى ببيض التماسيح وصغارها .

ويقال إن النمس ألد أعداء التمساح وأن أحب شىء إليه هو هذه الزواحف العظيمة . ومن الخرافات الشائعة أن النمس كثيراً ما يباغت التمساح وهو فاغر فاه فيغافله ويدخل فيه وينفذ إلى أحشائه يقطعها ويلتهمها ثم يمزق جلد التمساح ويخرج من جوفه .

ومر « نوطو » فيما مر مع الحارس بحظائر السلاحف وقد ناءت بما تحمل على ظهورها من عاب عظمة فراحت تزحف بها فى تثاقل وكسل وقد برمت وضاقت بحماها الذى قدر عليها أن

تحمله عمراً طويلا قد يزيد على الثلثمائة عام تقضيها فى حياة هادئة لا تتغير ولا تتبدل . وإلى جانب هـذه الحظائر أقيمت بيوت صغيرة تضم بين جدرانها الضباب والورل والأبراص والسحالى .

وعلى باب « بيت الثعابين » وضع صندوق زجاجى ثبتت به أغصان شجر جافة لصقت بإحداها زاحفة يعرفها الناس باسم « الحرباء » وفى طبـاع هذه الحرباء من الطريف والغريب ما يستدعى النظر ويدعو إلى التسلية . فالناظر إليها يرى عينين لا علاقة لإحـداهما بالأخرى تدوران فى محجريهما فى كل الاتجاهات فتتعقب الفريسة بعين وتتطلع إلى هدف آخر بالثانية كأن تستطلع بها الطريق أو تراقب العدو . وتظل ساكنة على هذه الحال حتى تستقر عينها على حشرة من الحشرات التى تتغذى عليها كذبابة أو غيرها وعندئذ وبأسرع من لمح البصر يندفع لسانها الطويل ممتداً إلى موضع الحشرة ليعود بها إلى فمها فتبتلعها والمعروف عن الحرباء أنها تتلون تبعاً للون البيئة التى توجد فيها فتكون خضراء مثلا بين الشجر أو صفراء فى الرمال وهكذا حتى راحت مثلا للتلون . والواقع أن هذا الرأى فيــه من الصواب والخطأ جميعاً . فحقيقة أن الحرباء كثيرة التلون ولـكن تلونهـا

هذا لا يرجع إلى البيئة ولكن إلى عوامل طبيعية ومؤثرات أخرى مختلفة كالضوء والحرارة والفزع والاستفزاز والجوع والعطش وغير ذلك مما يقع تحت تأثير الأعصاب على المادة الملونة الموجودة بخلايا الجلد .

دخل الحارس ببوطو إلى « بيت الثعابين » حيث وضعه مع أضرابه من النواشر فى صندوق زجاجى كبير و « بيت الثعابين » فى هذه الحديقة التاريخية خليق بالمشاهدة والاهتمام . . فإذا ولجه زائر أخذته الروعة بتلك الثعابين الحبيسة وقد تتملكه الرهبة إذا تذكر أنه أمام تلك الزاحفة العريقة التى كانت فى يوم ما معبودة القدماء تقام لها الهياكل وتبنى من أجلها المعابد . . فها هو ذا الناشر « أوريس » الثعبان المقدس كما كان يسميه قدماء المصريين . . وها هى ذى « المقرنة » معبودة « طيبة » كما ذكر « هيرودوت» ثم ها هى ذى «الأصلة » إلهة النصر عند زنوج أفريقية . . .

اكتظ المكان بشتى أنواع الثعابين وقد تهيأت لكل نوع البيئة التى كان يعيش فيها حين كان حراً طليقاً . . ويرى الزائر الثعابين هادئة ساكنة فى أماكنها قد اتخذت وضعاً معيناً تظل

عليه الساعات الطوال لا تغيره . . . يرى الأرقم الأحمر رابضاً شاخصاً . . و « الأزرود[١] » والأرقم البيتى متسلقين غصناً . . ويلمح « المقرنة » دفينة فى الرمال لا يبدو منها غير رأسها المفرطح و « الغريبة » هادئة فوق حجر تصطلى الشمس . . . ويبصر الناشر كامناً ساكناً فإذا أحس حركة بجانبه هاج وثار . وينظر إلى « حنش[٢] الماء » فيجده دائباً جاداً فى قطع جدوله ذهاباً وأوبة . بينما رقدت « الأصلة » فى قاع بركتها . . وقد يغادر الزائر « بيت الثعابين » دون أن يظفر برؤية البخاخ أو البرجيل .

وصادف أن كان حضور « يوطو » إلى « بيت الثعابين » فى يوم الثلاثاء أو يوم الضحايا وهو اليوم المخصص من كل أسبوع لتقديم الطعام لها فى المساء بعد انتهاء الزيارة .

فلما انصرف الزائرون وأقفر المكان هرع الحراس إلى احدى الحجر فى هذا البيت حيث سجنت الضحايا من الفيران والسحالى والحمام والماعز وأخذوا يوزعونها على الثعابين . . حسبما يستسيغه كل منها . . فهناك فى صدر المكان حيث محبس « الأصلة »

---

(١) Celuber florulentis (٢) Natrix tessellatus

الهائلة يروح الحارس يدفع إليها بأفراد الحمام فيرفرف حولها فى لهو وعبث وغباء . . . فإذا ما شعرت الأصلة برفيف أجنحتها تحركت بدافع الجوع وحملقت فى ضحيتها البريئة بعينين شاخصتين وفتحت فاها وما يزال الحمام فى لهوه وعبثه يقرب و يبتعد و يعلو و يهبط حتى تقع حمامة منه على فم الأصلة فتطبقه عليها فى هدوء وتغيبها فى جوفها ثم تعود فتفتح فاها لتستقبل ضحية أخرى . . وهكذا تتوالى الضحايا واحدة بعد أخرى حتى يستقر فى جوفها حوالى أربعة عشر زوجاً من الحمام . . .

وفى محبس ملاصق تقيم الأصلة الهندية فيقدم لها حارسها جدياً صغيراً فتحدق فيه مليا فيجمد المسكين فى مكانه من شدة الرعب والهلع . . . ولكن بدلا من أن تهم بهصر عوده وخنقه توطئة لبلعه تهمله ولا تقربه . . . لا رحمة به منها وشفقة عليه و إنما زهداً فى الطعام إذ كانت على وشك الانسلاخ . . وأنقذ الجدى مؤقتاً إلى أن يحين حينه فى أسبوع آت . . .

وفى أحد أركان البيت العتيد أنشبت « المقرنة » أنيابها فى فأر صغير — فما لبث أن مات بسمها فابتلعته من رأسه إلى أن استقر فى معدتها فأخذت فى هضمه حتى موعد الوجبة التالية . . .

وهكذا فعلت فى ركن مقابل « الحية القرعاء » بسحاليها . . .

وثمة ثعبان آخر هو « الفارغة » يتغذى بالبيض يقدمه له حارسه فيلتهمه دون أن تكسره أسنانه الأثرية . . فما إن تستقر البيضة فى مريئه حتى يضيق عليها من أسفل وتتقلص العضلات فتتعرض البيضة للكسر بالاصطدام بما يبرز من فقرات الظهر من نتوء وتسيل محتويات البيضة فى المعدة . أما القشر فيلفظه لعدم حاجته إليه . .

ثم ألقى الحارس ببعض الفيران فى بيت النواشر النهمة فتجمعت عليها تعمل فيها أنيابها . . .

أما بوطو فكان لحداثة عهده بالأسر مهتاجاً ثائراً يسعى بين جنبات المحبس عله يجد منفذاً . ولم يلق بالا إلى الجرزان التى كانت تهرول حوله قلقة مذعورة . . .

وأفل القمر فأقفل رفاعه باب السمر إلى الليلة التالية .

نايالا المجنونة

ولما أشرق القمر فى الليله الثامنة أتخذ رفاعه مكانه من القوم ليصل ما انقطع من حديثه قال :

ظل بوطو بضعة أسابيع فى معقله الزجاجى فى حدائق الحيوان بالجيزة إلى أن كان يوم مرت فيه بمصر بعثة علمية من امريكا الجنوبية وكان من همها أن تجمع ضروبا من الثعابين من مختلف الأقطار تنقلها إلى معاهد البرازيل وقد حملت فيما حملته إلى بلادها مما أهدى اليها من مصر بوطو المعروف .

وهكذا هبط بوطو أرض البرازيل ونزل ضيفا عزيزاً على (البوتان تان)(١) أو حزر الثعابين الشهيرة فى ضواحى (سان باولو) وهى حدائق غناء فسيحة الأرجاء انشأها العالم الكبير (فيتال برازيل) سنة ١٨٩٩ فأسدى بذلك إلى بلاده يداً وطنية خليقة

Butantan (١)

بأجزل الشكر وجمل الثناء وفى هذه الحدائق الواسعة تجمع أنواع الثعابين من شتى البقاع وقد أعدت لها جزر حيطت بخندق من الماء وأعد فى كل جزيرة قباء له أربع كوى ويفرد لكل نوع من الثعابين جزيرة تعيش طليقة فى أرضها وتتقى هجير الصيف ومطر الشتاء تحت قبابها .

وكذلك أعدت فى الحدائق حظائر للخيل التى تحقن بالسم لعمل المصل الواقى وهذا المصل يوزع بين جميع الأهالى بالمجان فقلت نسبة الوفيات بسم الأفاعى منذ ان أنشئت هذه الحدائق ويجمع السم من الأفاعى يمسكها الحراس بعصى خاصة ثم تدلك الغدد السمية فتفرز سمها ويجمع فى أوعية خاصة وهذه العملية شاقة مجهدة للأفاعى وتكرارها يقضى عليها — وقد أجريت لبوطو أكثر من مرة فقضت عليه وطويت صحيفة مليئة بالمغامرات حافلة بالحادثات ووضع فى الكحول بمتحف الحديقة ليؤدى للعلم خدمة بعد موته .

سكت رفاعه هنيهة ثم عاود حديثه قال وانعد مرة أخرى إلى الكلام عن البرازيل التى زارها صديقى الأستاذ موسى والتى كثيراً ما تحدث عنها أمام تلاميذه فى شىء من الإسهاب . فهذه

البلاد أحق بلاد العالم بأن تسمى وكر الثعابين فهذه الثعابين المرجانية الجميلة وهى سامة وغذاؤها الثعابين وقد مرن أهل تلك البقاع على صيدها فهم يحملونها ويبيعونها للسياح ويخفون عنهم ما فيها من خطر فيدعون أنها ليست سامة وإنما السم فى ثعابين فى جوفها تعض نيابة عنها وفى هذه البلاد سيد الأحراج وهو أطول الثعابين وأضخمها إذ يبلغ طوله أربعة أمتار وهناك غير هذه ذوات الأجراس[1] وهى أشرس الثعابين وأخبثها وهى أفاع تكونت على أذنابها حلقات قرنية مجوفة كالأجراس متداخلة بعضها فى بعض يحدث احتكاكها رنينا خاصاً ويرجح بعض العلماء أن لصوتها علاقة بالتزاوج ويعتقد بعض الهنود الحمر أن هذا الصوت نذير للإنسان فلولاه ولولا ما طبعت عليه من بطء الحركة لأربت ضحاياها وما أكثرها على الملايين. وأنياب هذه الأفاعى بالغة الصلابة مفرطة الطول فلا تجدى فيها كثافة الأردية بل لا تحول دونها صفاقة الجلود ولدغاتها قتاله ذريعة فإن جزءاً من مليون جزء من الجرام من سم هذه الأفاعى يقضى على الحمامة فى ثانية واحدة

(١) Crotallus

على حين أنه لا يقضى عليها فى مثل هذه المدة أقل من نصف مليجرام من سم سيد الأحراج الثعبان البرازيلى الشهير .

وتتخذ هذه الثعابين وكورها عند شواطىء البحر وفى الأحراج وفى السهول وفى الهضاب وحول المزارع وتعج بها الغابات الكثيفة التى قلما تطؤها قدم إنسان لأن الأشجار فيها ملتفة متراصة كأبنية سدت نوافذه وكثيراً ما تفقد الحيوانات ذوات الفراء أوبارها .

وهذه الغابات ساحة حرب عوان لا تهدأ رحاها بين جميع الكائنات الحية ففى طلب الضوء تتناحر الأشجار فيتسامى كل جرع بأغصانه إلى عنان السماء كما تعلو التيجان الرؤس لتظفر من أشعة الشمس بأوفر نصيب . وتظهر نباتات أخرى متسلقة تلك الجزوع وترتفع بدورها فوق هذه التيجان لتواجه الضوء وترسل غيرها جذورها الهوائية من عل فتتدلى فى ثنيات الغاب وعلى هذه الأفنان وفى وسط هذا النضال تعيش الببغاء الساحرة المنظر الفتانة الريش والقردة السريعة الحركات وأضدادها كآكل النمل والحيوان الكسلان وهناك مقبل الزهرة العصفور الجميل الذى لا تكاد العين تفرق بينه و بين الزهرة حين تقع عليها

وسط هذه البيئة تعيش الثعابين وخاصة ذو الجرس المخيف يبعث الرعب فى قلوبها وينشر الفزع فى نفوسها ويسلط شره عليها وعلى كل من دلف إليها فلا يطمئن إلى جواره صيد ولا يكاد ينجو منه صائد وهناك الحطابون الذين يعملون فى قطع أشجار الغاب لا يفتأون يعملون واصلين ليلهم بنهارهم ليمهدوا الأجزاء التى يطهرونها من الشجر ويهيئوها للزراعة حتى إذا ما نجحت جهودهم فى اخلاء بعض الساحات الصغيرة وظنوا أنهم قادرون عليها دهمهم سيل هذه الأفاعى وزحفت عليهم كتائبها تنذرهم وتنزل بهم بطشها وتتركهم صرعى فلا تعود جذور النباتات تجد ما يقف فى طريق نموها بعد أن سكنت المعاول فتنشط وتضاعف مجهودها وتضم إلى مملكة الغاب بعد أن انتزعت منها وكأن الطبيعة هنالك أشد من الأنسان بأساً وأطول باعاً وعلى جنبات هذا الغاب قامت قرى يعمرها قبائل من المهاجرين البيض والهنود الحمر رأوا وسمعوا كيف عصفت الأفاعى بأمثالهم فنفقوا حيناً تدفع عنهم غوائلها وعمدوا إلى الخنازير فاقتنوها وأكثروا من تربيتها فخلصتهم من هذا العدو ولولا هذه الخنازير التى لا تنال منها الأفاعى نيلا لما استقر لأهل القرى قرار ولخلت منهم أرضهم

وديارهم ولما سكنها غير الأفاعى من بعدهم وفى جوار الغاب كوخ صغير يروى الرواة عن صاحبته (المجنونة) قصة تبكى العيون فقد نشأت هذه المسكينة (نايالا) فى ذلك الكوخ طفلة فاتنة كالزهرة نضارة وجمالا ساذجة كالقطر طهارة وصفاءً ونشأ إلى جانبها ابن عمها (تمبابو) ابن زعيم القبيلة الذى بانت فيه مخايل الكرم والشجاعه فنشآ طفلين يمرحان ويلعبان وترعرعا شابين يسحران و يفتنان (نايالا) بوداعتها وجمالها «وتمبابو» ببسالته وإقدامه ونشأت معهما وترعرعت علاقة حب انتهت بزواج وتمت لتمبابو زعامة القبيلة بعد موت أبيه وكان يوم خرج فيه الصيادون إلى الغاب وخرج معهم زعيمهم وما إذ دخلوا الغاب وأوغلوا فيه حتى سنح له قطيع من الحيوان فراح يطارده وأبعده الطراد عن رفاقه فضل الطريق وشاء له سوء الطالع أن تقع قدمه على واحده من ذوات الأجراس فعضته في ساقه وما إن شعر بها حتى عدا عليها فقتلها وأسرع إلى موضع العضة من ساقه فشقه وجعل يعصر السم منه ثم اتخذ له ضمادة من قميصه ولكن السم كان أسرع من حيلته فسرى فى دمه وخارت قواه عرف ذلك حين تحامل على نفسه وهم بالنهوض فخانه عزمه وسقط مغشياً

عليه وكان الصيادون يجدون فى أثره للبحث عنه فعثروا عليه قبل ان يلفظ انفاسه الأخيرة فانخلعت قلوبهم لما أصاب زعيمهم وهموا بنقله ولكن الدم جعل ينزف من فيه ومن أنفه فدلهم ذلك على أنه فى النزع وأومأ إليهم فى هذه اللحظة الأخيرة أن ادفنونى فى ظل هذا الغاب واستحلفهم فى نغمة خافتة ألا يعلموا نايالا بمكانه وأن يكتموا عنها أمر وفاته وليكن مبلغ علمهم به حين تسألهم عنه أنه كان يطارد صيداً فى الغاب وأنهم بحثوا عنه فلم يهتدوا إليه وحان الحين الرهيب وفارق الزعيم الحياة فبكوه جهدهم ودفنوه حيث أمرهم وعادوا أدراجهم واقيتهم (نايالا) فلم يزيدوها على ما أوصاهم به وتطيرت بهذا النبأ فضل عنها صوابها واختلط عقلها وفرت إلى كوخها كالظبية النافرة وظلت فيه حبيسة لا تبرحه إلا مرة فى كل مساء إذا عاد الرعاة وآن أوان عودة الصيادين فتنتظرهم على رأس الطريق تتوسم وجوههم وتتسمع أصواتهم لعلها تظفر بتميابو المحبوب بينهم حتى إذا أسفرت لها الحقيقة ولم يظهر لها تميابو وغلبها اليأس انقلبت إلى كوخها وكأنها تردد فيما بينها و بين نفسها .

عد إلى يا تميابو فقد نفذ الصبر

عد إلى ولا تبطىء فانى أنتظر
و إلى أن يدب بياض الشيب في شعرى وقد دب
و يسلبه سواد لونه الفاحم وقد سلب
و إلى أن تكر السنوات واحدة إثر أخرى وتمر
و إلى أن يذوى عودى وتفنى زهرة العمر
سأظل أنتظرك يا حبيبي . سأظل أنتظرك يا من أحببته
من أعماق قلبي
سأظل أنتظر وأنتظر وأنتظر ؟ ؟

وسكت رفاعة وخيم على القوم صمت حزين حتى خرجت بهم وردة عن صمتهم سائلة : هلا أخبرتنا يارفاعة بما آل إليه حال صديقك موسى صاحب الفضل في هذا الحديث الشائق عن الثعابين ؟.. فأطرق رفاعة هنيهة ثم رفع رأسه متثقلا وهو يقول : لقد أشفقت على نفسى وعليكم من ذكر ما انتهى إليه أمر صديق العالم . ولكن ما دمت قد ذكرتنى بما تعمدت إغفاله فعلى رسلك ياوردة . . و إليكم نبؤه :

ظل الدكتور موسى يقوم بعمله الحكومى الذى أسند إليه خير قيام ، لا تفتر همته ولا تهن أمانته لعمله الذى أحبه من قلبه

وشغف به شغفاً عظيما ، فوهب له كل حياته حتى نسى ما عنده من أمور الدنيا . . . وكان هو راضياً عن نفسه ، راضياً عن عمله فرضى عنه رؤساؤه وأولوه ما شاء من عبارات التقدير ، وأغدقوا عليه ما شاء من عبارات الثناء والمديح . . وكان هذا كل نصيبه وكل جزائه . . ولم يفكر هو فى غير هذا النصيب ، وفى خير من هذا الجزاء . . .

واتصل بعلماء الشرق والغرب ، واتصلوا هم به ، فقدروا علمه وشادوا بفضله ، فذاع اسمه فى الشرق ، ونبه ذكره فى الغرب ولكن قل من سمع به فى بلده ؟ . .

وانقضت سنوات وسنوات ، وهو فى نفس عمله ، وفى نفس درجته . . وماذا يعنيه من ذلك ما دام هو بين ثعابينه وحياته الحبيبة إلى نفسه ؟ . . وجاءه البشير يوماً أن أبشر يا موسى فقد ذكرتك حكومتك بعد نسيان ، وجاءتك الترقية تسعى بعد طول هجران . . وارتسمت علامات الاستفهام على شفتى موسى وعلى وجهه جميعاً : كيف . . ولم ؟ ؟ فأنبأوه أن الحكومة قد أدركت أخيراً أن بعضاً من موظفيها يبقون أمداً طويلا فى درجاتهم لا تذكرهم بترقية إلى درجة أعلا ، فأشفقت على هؤلاء المهملين

فسنت لهم قانوناً ينصفهم بعد غبن سمته « قانون المنسيين » و
كان من بين هؤلاء المنسيين المهملين فسيفيد من هذا القانون فيرا
كيف . . ؟ ؟ أ كان إذن منسياً من حكومته رغم ما بذ
من جهد فى فنه وعلمه ؟ وعلام إذن كان ثناء رؤسائه وتقد
زملائه ؟.. أتنساه حكومته و يهمله بلده وهو الذى عرف الأجانـ
قدره فذكروه واعترفوا بفضله . . ؟ لا . . لا يمكن أن يكو
هذا حقاً وصدقا . . إنه حقيقة لم يفكر فى ترقية أو جزاء ماد
اكتفاء منه بحسن تقدير الأمة له وذكرها لشأنه . . . أما أ
يكون منسياً منها فهذا ما لا يفهمه ! . . ولكنه فهم أخيراً .
وأدرك أنه من زمرة المنسيين الذين لا يشعر بهم أولياؤ
ولا يذكرونهم ! .

سخط موسى على قومه . . وثار على عمله فعافته نفسه وصدفـ
عنه . . ولم العمل . . وفيم الجهد ؟ . . أليعلى من ذكر بلده و
نسيه . . وليرفع من شأنه فى العلم وقد سخر من علمه ؟ . . ولكـ
كيف يرضى هوايته وشغفه بثعابينه إذا هو ترك عمله ؟. وانتا
تفكير وذهول عميق . وأخيراً وجد الحل الذى ارتضاه واطمأنـ
إليه نفسه الحيرى . . سيسعى هو إلى حياته وثعابينه الحبيبة .

هناك فى الصحراء . . بين الرمال . . بعيداً عن القوم الجاحدين .

***

وانتهى رفاعة من حديثه ولما يأفل القمر فدعا عمه وردة إلى جولة أخيرة بين خرائب تل العمارنة فسار الثلاثة تحت ضوء القمر الباهت حتى أتوا قصر الملك أخناتون فوقفوا أمام تلك العظمة البائدة وقد سادهم صمت عميق قطعه رفاعة بسرد ما وعيه من تاريخ البطل العظيم (أخناتون) الصالح الذى أحب السلم وكره الحرب . . وشجع على الفنون وجعلها ممثلة للحقائق وليست لخيال كاذب أو رمزاً لأراجيف باطلة فجاءت الصور والتماثيل فى عصره غاية فى البساطة وصدق الدلالة . مرسومة بحالتها الطبيعية الوقتية فالكلب عاو والطير محلق فى الجو والثور الوحشى عائم فى المستنقعات مما كان يتمشى مع عقيدة أخناتون فى حقيقة الطبيعة وصوابها ولم يستثن من ذلك التغيير أخناتون نفسه فقد رسم جلالته على الآثار خالياً من الكلفة الفرعونية القديمة محافظاً على حالته الطبيعية الحقيقية . . وذكر رفاعة ما كان عليه أخناتون من حب الأسرة فحث على الزواج وكان خير قدوة فى ذلك لرعيته فوهب أسرته بعض وقته ينعم فى بيته من زوجته وأولاده ويخرج وإياهم للنزهة

ويحنو عليهم ويواسيهم من حبه وعطفه ما يلمسه في صوره . .

وعاش رفاعة ورفيقيه وقتاً في ذكريات ذلك الزمن السحيق ثم أفل القمر فآبوا إلى خيمهم . . ولما أصبحوا ارتحلوا إلى بلدهم

وزفت وردة إلى رفاعة فكان كلما أشرق القمر أشرق وجه وردة بابتسامة حلوة وهي تقول لزوجها :

« أما حدثتنا يا رفاعة عن ثعابينك . . »